يوم ميلاد البوابة

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

اسم الرواية: يوم ميلاد البوابة

اسم المؤلف: أدهم شوقي

التدقيق اللغوي: خلود أحمد

تصميم الغلاف: محمد دربالة

الإخراج الداخلي: خالد محمود

رقم الإيداع: ١٦٦٥٢ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٦٢٣٣-٤-٥




ش- حسن خطاب - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية


01020439639


massar.pub1@gmail.com

يوم ميلاد البوابة





إهداء

لكل من آمن بي... شكرًا لكل أصدقائي.. شكرًا مانو، ولكل من اَستهان بِي أُهدي لكَ هذه الرواية.

قد يصبح الخيالُ حقيقة في يومٍ ما.

(١)

إحدى قرى محافظة الدقهلية – ٢٩/ ٢/ ١٩٨٠

مبنى تقليدي يبلغ طوله خمسة أمتار، مكون من طابق أرضي واحد وسط أراضي زراعية في بلدة ريفية صغيرة تتميز بالهدوء والسكينة، رائحة الدهان تفوح من جدرانه، موقد صغير بعين واحدة عليه براد مملوء بالماء، وعلى منضدة صغيرة بجانبه كوب به قليل من السكر والشاي، رجل كبير في عقده الرابع، بدأ يظهر العجز على وجهه ويؤكد ذلك شاربه الذي يتخلله بعض الشعيرات البيضاء، وكذلك شعره الذي صابه داء الثعلبة، فأصبح من الجانبين فارغ ويمشطه للخلف مع تجاعيد وجهه والشعر الأبيض في حاجبيه، وعيناه السودتان وبشرته الداكنة وملابسه التي كانت تدل على أنه لا يهمه شكلًا ولا مظهرًا بسرواله، القماش الأصفر الفاتح وقميصه الأسود المخطط عليه بخطوط حمراء أفقية، يدندن بلحن مبهم بمزاج رايق وهو يستعد لاحتساء مشروبه المفضل، صوت هاتف يرن يقطع هذه اللحظة الشاعرية، يتركه محمود يرن وفي نفس اللحظة تنقطع الكهرباء في هذا المبنى، فيفهَم محمود ما

ينتظره، رنَّ الهاتف مرة أخرى فذهب محمود للرد بملامح جامدة بعدما توقع محتوى هذه المكالمة، رفع محمود سماعة الهاتف مرددًا:

- ألو، خير؟

رد عليه راجل بصوت هادٍ دون حتى إلقاء السلام عليه قائلًا:

- فيه عطل في الكهربا، وزي ما أنت شايف قاطعة وماحدش عارف سبب العطل، روح عند المحول حالًا وشوف حل المشكلة.

غلق هذا الرجل الخط دون حتى أن يترك محمود يتحدث، مما أثار غضبه أكثر، وبدأ يسب ويلعن في كل من كان سببًا في نقله لهذه البلدة.

جهز محمود عِدته وذهب ليستقصي الأمر، تحرك محمود وهو نافر، قد أفسدت هذه المكالمة صفو مزاجه، أراض زراعية كثيرة وطريق واسع يعم الظلام عليه، ولا يسمع محمود أَي صوت سوى صوت صرصور الحقل وهو يملأ أرجاء المكان، وصل محمود للمحول بعدما قطع مسافة من جنوب البلدة لشمالها، حيث إن محول القرية المشيد حديثًا يقع في شمال البلدة، وخلفه أرض الحاج الشعراوي ومن ثم الترعة، بدأ يفتح محمود حقيبة عِدته ويخرج كشافه، وحين شرد محمود النظر على الترعة وجد نورًا طفيفًا نابعًا من منتصفها، لم يبالِ محمود فقد ظن أن نور القمر ينعكس على المياه، أخرج محمود عِدتَه وبدأ يباشر عمله وسمى الله وفتح المحول، صُدِم محمود قليلًا؛

فوجد أنه لا يوجد أي عطل في المحول وكل شيء على ما يرام حتى سمع صوتًا يناديه من الترعة، ملأ الخوف جوفه وظل يردد:

- مين؟!

- مين؟!

لم يرد أحد عليه، فأكمل عمله بسرعة فائقة ظنًّا منه أن جنية الترعة (النداهة) تناديه، أغلق المحول وهَمَّ يفر مسرعًا حتى سمع صوتًا مهموسًا يناديه قائلًا:

- أنا عارف المشكلة فين يا عم محمود.. تعالَ علشان نحلها!

ركض محمود من هول الموقف، ثم تعثر في طوبة ووقع على الأرض ثم ظل يردد:

- أنت مين، أنت مين رد عليَّ؟!

ليرد عليه هذا الصوت المجهول قائلًا:

- هاقولك أنا مين.

لمعت عين محمود وظل كيان مجهول يحركه.. شيء لا يعرف مصدره، مشى خلف هذا الصوت حتى تخطى أرض الحاج الشعراوي ووصل للترعة ثم حلَّ صمت على المكان، فاق محمود من حالته ووجد نفسه أمام الترعة، وقبل أن يستمر في صدمته رأى الترعة تنشق نصفين، ويخرج منها نور قوي، كانت تشبه بانشقاقها

انشقاق بحر موسى - عليه السلام - حين كان يهرب من فرعون هو وقومه، سمع محمود الصوت مرة أخرى وظل يتبعه ويمشي خلفه وهو لا حول له ولا قوة، حتى نزل لمصدر هذا النور القوي ورأى بابًا يفتح وصرخ صرخة أفزعت أهل القرية، تحرك أهل القرية جميعًا لمصدر هذه الصرخة عدا الحاج نعمان؛ لأنه كان ينتظر مولوده الأول..

عادت الكهرباء مرة أخرى، وعندما وصلوا لمصدر الصرخة لم يجدوا شيئًا، ظلوا يبحثون حتى وجدوا عدة (الأسطا محمود) مكتوبًا عليها بخط من نار ٢٩/ ٢/ ١٩٨٠.

(٢)

أخبرتك سنجتمع اليوم، اليوم هو يومك.

أنت مين؟ أنا فين؟

فُتحت الأبواب وانشقت الأرض ودخل مدحت إلى عالم غريب، عالم فيه أناس غريبة، للوهلة الأولى عندما تراهم تحسبهم مسوخ رجل يقف بطولٍ فارع وجسم مليء بالعضلات، وشعر أحمر مجعد خشن وملامح بارزة، أعين واسعة بحدقة زرقاء، أنف عريض تشبه في تكوينها كأنوف الزنوج ولكن بشرتهم بيضاء، عالم سفلي كيف يكون هذا الواقف أمامه بشر؟ نظر هذا الرجل لمدحت مرة واحدة ثم اقترب منه ونظر له ثم قال في تهجم:

- أنت.. ما الذي آتى بك إلى هنا يا ملعون، أغرب عن وجهي عليك اللعنة الأبدية.

وقبل أن ينطق مدحت بحرف واحد فتحت السماء لتمطر جمرًا من النار تحرق كل ما في هذا العالم، وقبل أن تصيب مدحت بلحظات وقف الزمن وسمع كلمات من شخص مجهول يشبه صوت مدحت قائلًا:

- لا تخف يا شريكي! سآتي لك اليوم لأنقذك اليوم هو يومك.

استيقظ مدحت من نومه مفزوعًا يصرخ ويردد: - أعوذ بالله، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، استغفر الله العظيم.. إيه الحلم ده إيه الكابوس ده..

ملس مدحت يده على شعره الناعم، وبدأ يفرك عينه، وقطع صوت هاتفه المحمول هذه اللحظة المريرة عليه ليجد المتصل "آية" توأم روحه وحبيبته تطمئن عليه بعدما رنَّت عليه سبع عشرة مرة، رفع مدحت الهاتف إلى أذنه ثم قال بصوت هادٍ:

- ألو يا آية!

لترد عليه آية بصوت يملأه الخوف قائلة:

- أيوة يا مدحت مابتردش ليه يا حبيبي أنت كويس؟

- أنا كويس يا آية، بس حلمت بكابوس فظيع هاقولك كل حاجة إما أجي المدرسة إن شاء الله علشان أنا اتأخرت.

- أنا في المواصلات في طريقي أهو متقلقش يا حبيبي وقوم صلي، وده مجرد كابوس مش هيبقى أفظع من الكابوس اللي شوفته أول مرة قعدنا فيها مع بعض.

تخرج هذه الكلمات من فم آية وهي تضحك لتهون على حبيبها كابوسه، ليرد عليه مدحت قائلًا وهو يضحك:

- حاضر يا آية خلّي بالك من نفسك، سلام!

قام مدحت من على سريره ودخل ليتوضأ، وصلى ركعتين داعيًا الله فيهما أن يهون عليه ما رأه، وأن يعجل في زواجه من خطيبته آية، فَهُم على وشك الزواج.

جهز مدحت نفسه وارتدى سرواله ال ""Jeans الأزرق المفضل لديه و "T– shirt" أسود، وحذاءه الأسود القماشي لتعطيه منظرًا جذابًا مع شعره الأسود الناعم الذي يضع عليه قليلًا من "الجل" ليعطيه لمعة، وجسمه المثالي ويزيد عليهم ملامحه الوسيمة ببشرته البيضاء وأنفه الصغير وعينيه العسليتين، استقل مدحت دراجته النارية للذهاب لمقر المدرسة الذي يعمل فيها، فمدحت معلم لغة عربية، ولكن يستخدم هذه الدراجة في عمله الآخر في أحد المطاعم لتوصيل الطلبات للمنازل، الذي يسبب له هذا العمل متاعب مع حبيبته وأبيها، ودار العديد من النقاشات بينهم، كيف يعمل معلم لغة عربية في عمل كهذا؟ أترضاها لنفسك؟ وكثير من هذه الترهات وكان نقاشهم ينتهي قبل أن يبدأ، فكان رد مدحت مقنعًا دائمًا يرشف رشفة من كوب الشاي ثم يقول:

- لو الألف ونص بتوع اللغة العربية هايجوزوني ماكنتش تعبت نفسي واشتغلت شغلانة تانية.

ثم يرشف رشفة أخرى.

وصل مدحت لمقر عمله وباله منشغل بكابوسه الغريب، بدأ في ممارسة روتينه اليومي المعتاد، وينظر بفارغ الصبر وقت استراحته حتى يرى "آية" بنت روحه بسحر عينيها وجمال رُوحها، فإذا كان به هَم العالم بأكمله، يراها يطيب قلبه.

أنهى مدحت حصته الأولى وخرج من الفصل في تجاه غرفة المُعلمين، وبمجرد أن اقترب منها شمَّ رائحة الطعمية السخنة والفول المصري المدمس وقليل من الباذنجان المقلي، تأكد أن حبيبته جهزت له فطوره كالعادة، ضرب مدحت كف على كف ثم قال:

– مش شامم ريحة نعناع، الشاي مش هيبقى له طعم.

كان صاحب مزاج عالي، لا يشرب الشاي إلا بالنعناع البلدي الصابح، فتح مدحت باب الغرفة بملامح عبسة وكان ينوي أن ينهر آية لعدم وجود النعناع، دخل عليها ليراها في انتظاره وعلى وجهها ضحكة، كانت هذه الضحكة هي دواؤه، كانت تنسيه همَّه، بمثابة مخدر يعده أعتق مدرسي الكمياء ولكنه حلال، وقبل أن ينطق مدحت بكلمة واحدة، لفظت آية بلسانها المعسول والشوق يملأ عينها قائلة:

– طمني عليك يا حبيبي قلقتني، جهزتلك فطارك والشاي اللي بتحبه.

وقبل أن يسأل مدحت على النعناع دخل عم راضي الساعي في

يده أعواد نعناع صابحة تفوح رائحتها وهي تملأ أرجاء المكان، لتكمل آية حديثها قائلة:

- والنعناع جيه أهو كمان، أقعد احكيلي حلمت بإيه!

جلس مدحت وهو يربت على كتف حبيبته ويقبِّل رأسها ليشعرها بدفئه ويطمئنها عليه، ولكن صراحة كان هو من يطمئن لمجرد وجوده بجانبها، فتح مدحت كيس العيش وأخرج واحدًا وقطع لقمة صغيرة وشكَّلها بأذن القطة، ثم أغمسها في الفول ووضعها في فمه ثم بدأ حديثه قائلًا:

- حلم غريب أوي، حلمت إني في مكان غريب، هو شكله حلو، مناظر طبيعية شوية جبال على شوية نافورات وشلالات طبيعية.

مسك مدحت كوب الشاي ورشف رشفة صغيرة، ثم أكمل حديثه قائلًا:

- بس حلاوة المكان ماكنتش شافع للي شفته، واحد طويل يا آية شعره أحمر خشن وعينه زرقا ومناخيره كبيرة كان واقف بعيد عني مرة واحدة لقيته بيقرب منى وبيقولي: "أنت.. ما الذي آتي بك إلى هنا يا ملعون، أغرب عن وجهي عليك اللعنة الأبدية" وفجأة مرة واحدة لقيت السما بتتفتح وبينزل منها كور نار، وقبل ما تلمسني لقيت كل حاجة قدامي وقفت في منظر غريب، ولقيت صوت شبه

صوتي بالظبط بيقولي: "لا تخف يا شريكي، سآتي لك اليوم لأنقذك اليوم هو يومك، بعد كده صحيت وكلمتك."

تغيرت ملامح وجه آية، ومسكت يد مدحت بخوف وقالت له:

- مدحت أنا مش مطمنة للحلم ده، أنا حاسه أني شوفت الموقف ده قدامي بالظبط.

وضع مدحت يده على يدها، وبدأ يطمئنها وأخبرها أنه مجرد حلم أو كابوس عابر، لا يجب أن نعطيه أكبر من حجمه، تبادل الحبيبان أطراف الحديث وفي نهاية حديثهما أخرجت آية من حقيبتها هدية ملفوفة بورق لامع أحمر لتعطيها لمدحت قائلة:

- كل سنة وأنت طيب يا حبيبي، وإن شاء الله السنة الجاية نكون في بيتنا سوا.

نظر له مدحت نظرة تحمل معانٍ كثيرة قائلًا:

- أنا بحمد ربنا كل يوم أنه رزقنى بيكِ، يا أحلى من معاني اللغة، وأسمى من قواعد النحو.

ضحكت آية، ثم أخبرها مدحت بمغادرته لعمله الآخر.

أنهى مدحت عمله الأول وذهب للآخر في أحد المطاعم في منطقة المشاية السفلية الممتدة من شارع الجمهورية في المنصورة،

وجد صديقه أحمد الذي يكبره في السن بخمس سنوات بكرشه المتدلل ودهونه المترهلة في وجهه، يحدثه بضحكة لزُوجة قائلًا:

- سعادة الباشا المدير نورتنا متأخر كعادتك، امسك ال "Order" ده وصله شارع ١٠ ومتتأخرش علشان الشغل كتير النهاردة.

بدل مدحت ملابسه، وارتدى الزي الموحد لعملاء التوصيل وركب دراجته، وبدأ يباشر عمله الآخر نافرًا من حياته، ولكن لابد أن يصبر لينال حبيبته في النهاية..

أنهى مدحت عمله وذهب إلى محل صغير، آتى منه ببعض من قطع الكيك وشموع تحمل الرقمين اثنين وثمانية ليحتفل بعيد ميلاده الثامن والعشرين وحيدًا كالعادة، وصل مدحت لمنزله القاطن فيه بمنطقة جديلة، المنزل مكون من ثلاثة طوابق يسكن مدحت في الثاني، صعد درج المنزل المتهالك وفتح باب شقته، شقة صغيرة مكونة من غرفتين وصالة ومطبخ وحمام، أثاثها بسيط يناسب شاب أعزب، دلف للداخل ومد يده لإشعال الأنوار، وقبل أن يضغط على زر الكهرباء وجد الأنوار اشتعلت ذاتيًا بمفردها دون أن يلمسها، شرد نظره على الأريكة، وجد شخصًا يشبهه تمامًا يرتدي نفس ملابسه جالسًا عليها ثم نظر لمدحت قائلًا:

- أخبرتك أنني سآتي لك اليوم، فاليوم هو يومك.

(٣)

ليلة التاسع والعشرين من فبراير- ١٩٨٨

في إحدى قرى محافظة الدقهلية البسيطة، منزل مبني من طوب اللبن، كان يسمى قديماً بالنيّ، مكون من طابق واحد أرضي مُجهز ببدائية شديدة، أثاثه بسيط مكون من أريكة مبنية من الطوب الأبيض (الجير) وبعض من سجاد حصير الغاب، وإناء من خزف، ذو عُروتَيْن يستعمل في حفظ المياه، ويطلق عليه عامة الناس (البلاص) وفرن صغير يشتعل بالحطب، في مطبخ متواضع للغاية تقف الحاجّة سنية تجهز العشاء لطفلها وزوجها، وأثناء تجهيزها يلح عليها طفلها بالسماح له بالذهاب للعب مع صديقه حتى تنتهي من التجهيزات ثم تناديه، زمجرت الأم في البداية ورفضت ذهابه، ولكن بعد بعض من الإلحاح وافقت الأم ولكن بعد سؤالها المعتاد:

هتلعب مع مين؟ وفين؟

ليرد عليها طفلها قائلًا:

- هلعب مع فرحات في الأرض الواسعة اللي ورانا.

- أول ما أنديك علشان تتعشى تيجي أوام يا مدحت، أصل والله ما عدت هاتشوف الشارع تانى.

بالرغم من حب سنية الكبير لولدها، إلا أنها تخاف عليه بمقدار هذا الحب، تعتبره كالبيضة إذا اقترب أحد منها ستنكسر، كذلك مدحت بالنسبة لها، خوفها الشديد عليه كان ينقلب عليها في بعض الأحيان، كان يؤثر عليه ويرى نفسه دائماً طفل حتى إذا تخطى السبعين، ستعتبره أمه طفلها المدلل دائما.

خرج مدحت من منزله ليلتقي بفرحات الطفل ذي الثمانية، بشعره القصير وأنفه الصغيرة وقصر طوله وبراءة ملامحه، إلا أن هذه البراءة كانت تخفي ورائها الكثير.

التقى الطفلان ببعضهما ولعبوا كرة القدم، ثم اقترح فرحات اقتراحًا جنونيًا:

- بقولك إيه يا واد يا مدحت أنت مزهقتش من اللعب الممل ده؟

ليرد عليه مدحت باستغراب:

- زهقت بس هنلعب إيه غيره، ما هو يا شوية كورة يا شوية صندوق أو القطة العامية أو الحمارة الطويلة، إحنا ورانا غيرهم!

رفع فرحات يده إلى مستوى رأسه وبدأ يحك شعره ثم نظر

لمدحت قائلًا:

- إيه رأيك نروح عند الترعة الساعة اتناشر بليل ونشوف إيه اللي هيحصل فيها النهاردة؟

وبخ مدحت فرحات وأخبره أن ينسى ما يقوله، وأن يصمت حتى لا يسمعه أحد ورفض رفضًا شديدًا قائلًا:

- أنت مجنون يلا؟ أنت ناسِي اللي حصل من ٨ سنين؟ الشيخ وهدان كل سنة يحكيلنا في الكُتاب إما نروحله بعد المدرسة على اللي حصل، كل الحكاوي اللي أهل البلد بيحكوا عنها كل يوم وكل دقيقة معدتش عليك؟ ولّا اللي بيحصل كل سنة عند الترعة؟ أنت ناسي؟

ليرد عليه فرحات قائلًا:

- لا مش ناسي، بس إحنا زهقنا من لعبنا الممل ده، وبصراحة بقي أنا مش مصدق كل اللي بيتحكي ده، تعالى نروح نشوف يمكن نشوف حاجة تقتل الملل اللي جوانا ده.

كان فرحات طفلًا فضوليًا لا يترك شيئًا يمر مرور الكرام عليه، لابد أن يعرف أصله وفصله، وقد أثار هذا الموضوع فضوله منذ أن كان في قصر ثقافة المنصورة يقرأ عن الأشياء الفلكية الغريبة التي تحدث بسبب تأثير القمر وحركة الكواكب وغيرها..

بدأ فرحات يقنع مدحت بكلامه المعسول حتى اقتنع، واتفقا الطفلان على خُطة وكانت كالآتي:

يذهب مدحت لوالدته يخبرها بضرورة الذهاب لمنزل فرحات لمذاكرة بعض الدروس لامتحان الغد وسيقيم عنده الليلة، وأخبر فرحات مدحت أن يسرق كشف والده؛ لأن الكهرباء ستكون غير موجودة حينها.

أنهى مدحت لعبه ونادت أمه عليه لتناول العشاء، دلف مدحت إلى منزله وجلس على الطبلية المليئة بأصناف عدة كالعيش البلدي، والمّش، والبطاطس المهروسة، وبعض من الخضرة كالطماطم والخيار وغيرها..

يستمع مدحت لأبيه وهو يحكي ما حدث في عمله اليوم، وباله منشغل في كيفية إقناع أمه بالذهاب لفرحات، قضم مدحت لقمة من البطاطس المهروسة ونظر لأمه قائلًا لها:

- أمّا، ورايا امتحان بكره مهم ولازم أروح اذاكر مع فرحات في بيته.

لترد عليه أمه قائلة:

- طب ما يجيلك هو!

ارتبك مدحت، حيث إن هذا السؤال لم يفكر فيه، فكان مباغتًا

لعقله حتى نقذه والده وتحدث قائلًا:

- ما هو كان هنا الأسبوع اللي فات يا وليّة، سيبي الواد يروح يذاكر.

لترد أمه على أبوه قائلة:

- والله يا نعمان ما حد هيبوظ الواد غيرك بدلعك ده، أنت ناسي النهاردة إيه؟ النهاردة ٢٩/ ٢ هخرج الواد في اليوم ده؟

ليرد عليها أبوه قائلًا:

- والله أنا ماليش دعوة لو أمك وافقت روح يا واد.

وقام من مجلسه ذاهبًا لدورة المياه، نظر مدحت لوالدته يترجاها لكنها مصرة على موقفها حتى تذكر مدحت عندما كان جالس عند فرحات، ورآه يلح على أمه للسماح له بالذهاب لقصر ثقافة المنصورة أثناء العطلة الأسبوعية مع الرحلة المدرسية التي تنظمها مدرسته كل ترم، بعد كثير من المناوشات بينهم وافقت أمه بعدما قالت له:

- روح يا زنان، دا الزن على الودان أمر من السحر.

استخدم مدحت هذه الخدعة وألح على أمه إلحاحًا ملأ رأسها بالصداع، ولا يكفيها المخزون الدولي والاحتياطي من "الأسبرين" لإخماده، بعد عناء شديد وافقت أمه، ولكن ببعض القواعد

أهمها إلا يخرج من بيت فرحات بعد الثانية عشرة، وأن يوصله والده لمنزل فرحات، وافق مدحت على قواعدها وطبع على خد والدته قُبلة ليطمئنها، ودخل للمطبخ مدعيًا أنه لم يكمل أكله، دخل ليبحث عن كشاف والده سرقه خلسة، وذهب مع أبوه لمنزل فرحات لينفذا مغامرتهما الخطيرة التي ستقل الملل الباهت على لعبهما، تقترب الساعة على الثانية عشرة وادعى الطفلان أنهما يذاكرا وسيخلدان للنوم بعد قليل، حتى لا يشك الحاج عبد القوي والد فرحات فيهما..

قُطعت الكهرباء كعادتها في هذا اليوم، بدأ يتسلل القلق لجوف مدحت، ولاحظ فرحات هذا وبدأ يطمئنه بأدلة غير منطقية، ويقنع مدحت بأن انقطاع الكهرباء في هذا اليوم باتفاق الأهالي مع عامل الكهرباء لإحياء ذكرى عم محمود - رحمه الله - وأنه متأكد من أن نور الترعة الشديد نابع من ظاهرة فلكية قد قرأ عنها فرحات في قصر ثقافة المنصورة حين كان مع مدرسته، تظاهر الطفلان بالنوم حتى نام والدي فرحات، دق وقت المغامرة وهرب الطفلان من الشباك الصغير المفتوح في غرفة فرحات، استقلوا طريقهم والخوف يظهر على مدحت ظاهرًا وباطنًا، بينما فرحات يتظاهر بعدم القلق إنما بداخله يكمن خوفه، تسامر الطفلان أثناء ذهابهما للمكان المطلوب وعندما اقتربا من المكان المطلوب أخبر مدحت فرحات بضرورة العودة حتى لا يحدث مصيبة لا يتحملا نتيجة

تبعاتها، رفض فرحات وما كان على لسانه إلا كلمة واحدة: جمد قلبك!

وصلوا للمكان المطلوب ولكي يطمئن فرحات صديقه، أخبره أنه من سيدخل أولًا خلف المحول لكي يثبت له أن كل هذا ليس حقيقي، شعر مدحت بشيء غريب، شعر أنه يعرف هذا المكان جيدًا بالرغم من أنه لم يأتِ إلى هنا بتاتًا، ولا سبق له أنه تخطى المحول من قبل، شعر أنه جاء هنا وجلس على كرسي مقيد وأمامه شخص ليس قادرًا على تذكر ملامحه يحدثه، وحين كان شاردًا في كل هذا أيقظه فرحات من شروده وأخبره أنه سيدخل الآن، مسك مدحت يد صديقه واحتضنه ونظر في عينيه وقال له:

- أنا مش مرتاح يا فرحات تعالى نرجع!

ليرد عليه فرحات ببرودة أعصاب ظاهرية، ولكن بداخله يموت من كثرة الخوف قائلًا:

- متخافش، وجمد قلبك هثبتلك أن كل ده سراب مش حقيقي متقلقش!

دخل فرحات خلف المحول ووصل لأرض الحاج شعراوي، قوَّس فرحات يده على فمه وصاح بصوت عالٍ لمدحت قائلًا:

- مش قولتلك مفيش حاجة يا مدحـــــ..

وقبل أن يكمل جملته ساد صمت على المكان تزامنًا مع شدة النور النابع من الترعة، نظر مدحت من خلف المحول لكي يطمئن على صديقه وجده واقفًا كالمسمار ناظرًا للترعة، نادَ مدحت عليه بأعلى صوته، ولكنه لا يرد واقفًا بحالته هذه ناظرًا للترعة، وفجأة نظر لمدحت بعدما لفَّ جسمه ناحية مدحت ١٨٠ درجة ناظرًا في عين صديقه وعينيه منزوع منها البؤبؤ وحدقته كلها سوداء، ثم اختفى مرة واحدة، وقع مدحت على الأرض من شدة صدمته وركض بأقصى ما عنده لمنزله، أخبر والده بما حدث ووبخه، ولكن أخبره مدحت أن هذا ليس وقته، ذهب الحاج نعمان بدوره لوالد فرحات الحاج عبد القوي وذهبوا جميعًا للشيخ وهدان أكبر شيخ في القرية وذهبوا جميعهم للترعة، وصلوا وظلوا يصيحون بأعلى صوتهم قائلين: "فرحات واد يا فرحات" وجاءت البلدة كلها رجالها ونسائها، وظلوا النساء يزغردن أمام الترعة حتى جاءت الكهرباء ورأوا أهل البلدة جسم يطفو على مياه الترعة، وكل هذا على مرأى ومسمع مدحت، أخرجوا أهل القرية هذا الجسم الذي تبين أنها جثة فرحات، وحين شرد مدحت النظر على جلباب فرحات وجد شيئًا مكتوبًا، ولكنه ليس قادرًا على قراءته، وحين دقق النظر فقد الوعي وهمد جثمانه على الأرض، نزل الحاج نعمان على الأرض داعيًا الله أن يحفظ ابنه، وحين رمى نظره على جلباب فرحات وجد مكتوبًا عليه بخطٍ من نار ٢٩/ ٢/ ١٩٨٠.

(٤)

منزل مدحت ليلة التاسع والعشرين من فبراير- ٢٠٠٨

- يعني أنت كنت السبب!

- لم أجد حلًّا غير هذا.

- حل إيه وقرف إيه، أنت مين يا جدع أنت لو ماقولتش أنت مين هبلغ الشرطة!

- تفضل أنا لم أمنعك.

ذهب مدحت للهاتف وكتب رقم ١٢٢ ليتفاجأ أن حرارة الهاتف مقطوعة، جرب هاتفه الخلوي، نفس الأمر لا يوجد إرسال، ذهب للمطبخ وأتى بسلاح أبيض لحماية نفسه من الشخص الجالس أمامه الذي يشبهه بدرجة كبيرة، وفي لحظة ظن أنه توأمه، نظر مدحت لشبيهه قائلًا له:

- أنت مين؟ وإيه علاقتك بيَّ وإيه علاقتك بفرحات وموته؟ رد عليا أحسن أقتلك ومش هاخد فيك سنة سجن رد عليا!

- اهدأ واجلس لنتحدث وسأفهمك كل شيء، كل ما تفعله الآن لن يفيدك.

ليرد عليه مدحت قائلًا:

- أتكلم معاك ازاي، أنا مش فاهم حاجة أنت جن ولا عفريت ولا إيه؟

ليرد عليه الشبيه قائلًا:

- سأعرفك الآن من أنا، ارفع سماعة هاتفك.

نظر مدحت للهاتف وجده يرن، نظر مدحت لشبيهه نظرة صادمة وجده ينظر له ويضحك، ثم تحرك ناحية الهاتف ورفع سماعة الهاتف برعونة حتى وصلت إلى أذنه ليجد المتصل آية تقول له بصوت مبحوح يغلب عليه الخوف قائلة:

- الحقني! الحقني يا مدحت!

وقعت سماعة الهاتف من مدحت على الأرض، ثم نظر للشبيه وجده يبتسم له نفس الابتسامة اللزجة، ركض باتجاهه ومسكه من سوار ملابسه بأيديه وصاح في وجهه قائلًا:

- أنت مين وعايز مني إيه وعملت في آية إيه، لو متكلمتش هقتلك فاهم هقتلك!

ضحك له شبيهه ومسك مدحت من معصميه وأبعدهم ومسح

بيده على ملابسه لينظفها، ثم نظر لمدحت وقال له:

- أخبرتك سابقًا أن تجلس ونتحدث، وستعرف من أنا، لكنك اخترت الحل الأصعب، اجلس.

نظر له مدحت نظرة باستياء وجلس على الأريكة بهدوء ثم نظر له وقال:

- اتفضل.

ابتسم له الشبيه ثم أردف قائلًا:

- الحقيقة أنني جئت لك مُرسلًا بمهمة من عالم آخر، ليس عالم الجان ولا العفاريت ولا أي من هذه الترهات، عالم ستزهر فيه ورودك وتعلو فيه بحياتك.

نظر له مدحت بتعجب لوهلة ثم ضحك ضحكًا شديدًا قائلًا:

- أنت قريب الأستاذ إبراهيم نصر؟

- ده مقلب صح؟

- بس والله الجدع اللي عملكم الماسك اللي شبهي ده عالمي، ممكن يعملي واحد زيه بالظبط لنانسي عجرم؟

رنَّ جرس منزل مدحت وهناك طارق يطرق الباب بطريقة مخيفة أرعبت مدحت، فركض مسرعًا ناحية الباب وفتح ليجد

أحمد صديقه بهيئة مختلفة، ملابسه ممزقة ويملأ الدم وجهه وفي يده ورقة أعطاها لمدحت ثم اختفي من أمامه كأنه لم يأتِ، نظر مدحت في الورقة ليجد مكتوبًا فيها كلمة بالدم "أنقذنا".

فجأة اختفى كل شيء، وجد مدحت نفسه وشبيهه في ترعة قريته بعد أن جفت مياهها، ثم خرج نور قوي من منتصف الترعة وانشقت الأرض ومن العدم طلع منها بوابة كبيرة طولها يصل عنان السماء، مشيدة بخشب قديم عليه بعض الرسومات الغريبة، فُتحت البوابة ودخل مدحت منها حتى رأى ما لم يره من قبل.

(٥)

منزل مبني من طوب اللبن كان يسمى قديماً بالنيّ، مكون من طابق واحد أرضي مُجهز ببدائية شديدة، أثاثه بسيط مكون من أريكة مبنية من الطوب الأبيض (الجير) وبعض من سجاد حصير الغاب، وإناء من خزف، ذو عُروتَيْن يستعمل في حفظ المياه ويطلق عليه عامة الناس (البلاص) وفرن صغير يشتعل بالحطب، غرفة صغيرة بِداخلها أنثى تصرخ بشدة، ونساء مسرعة يركضون وفى أيديهم أَوانٍ بها مياه يتصاعد منها بخار على الأغلب مياه ساخنة، ورجل منتظِّر شيء بلهفة ويدعو الله بكلمات "يا رب سلّم يا رب سلّم" أنثى يزداد صراخها ثم تهدأ، وأنثى أخرى تخرج من الغرفة النابع منها الصوت وفي يدها طفل حديث الولادة، تزغرد وتذهب به إلى الرجل قائلة:

– بسم الله ما شاء الله، بسم الله ما شاء الله، ولد زي لهطة القشطة يا حاج نعمان هاتسميه إيه؟!

في نفس اللحظة دخل عليهم رجل قصير القامة يرتدي كاكولة وجبة وجلباب أبيض، وعلى رأسه طربوش أحمر ملفوف بشال أبيض يسمى (العمامة) ولحية تنزل إلى حد صدره، يبارك ويهنئ

مرددًا ببعض من آيات الله، دخل الشيخ وهدان محتضنًا نعمان مهنئًا له بمولوده الجديد الذي طالما انتظره لسنين.

- ألف مبروك يا نعمان جالك العيل اللي نفسك فيه.

ليرد عله الحاج نعمان قائلًا:

- الله يبارك فيك يا وهدان، كله بفضل ربنا ثم بعد ذلك بفضلك، أنا عمري ما هنسالك الجميل ده طول حياتي يا وهدان.

ليرد عليه الشيخ وهدان وهو يبتسم:

- ماتقولش كده يا راجل يا طيب، أنت صبرت كتير، وربنا عوض صبرك خير، أنا كنت مجرد سبب ربنا مسخره ليك علشان يحصل ده وبعدين لو عايز تشكر أشكرها هي.

ليرد عليه الحاج نعمان قائلًا:

- صحيح شوفلي ميعاد معاها والنبي عايز أشكرها وش السعد عليَّ.

- إن شاء الله يا وهدان، ها هاتسمي الواد إيه؟

- مدحت هسميه مدحت.

عيناه واسعتان منصدم من هول الموقف، يقف مدحت في ركن من أركان منزله يرى نفسه يوم ولادته وأبوه يستقبل التهاني من

الحاضرين أمامه، وقبل أن يستمر في حالة صدمته هذه اختفى كل هذا من أمامه، وجد مدحت نفسه في مكان مظلم صامت لا تسمع فيه سوى صوت صرصور الحقل، محول كهرباء مفتوح ورجل يسمي الله ليباشر عملاً ما، وأرض زراعية خلفها ترعة، مرة واحدة يأتي نور شديد نابع من هذه الترعة، يتحرك الرجل الواقف أمام المحول إلى هذا النور وعينيه مغلقة، ويديه إلى جانبه يمشي خطوة بخطوة ثم فاق مرة واحدة وركض ثم تعثر في طوبة صغيرة على الأرض، وقف ليركض مرة أخرى، ولكن نظر للنور النابع من الترعة مرة أخرى حتى اقترب منه بنفس الخطوات البطيئة، ورأى الترعة تنشق نصفين، وقبل أن ينزل هذا الرجل إلى منتصفها، صاحَ مدحت بصوت عالٍ قائلاً:

لا، لا يا عم محمود لا ارجع.

نظر له عم محمود ثم أكمل طريقه واختفى، رجعت الترعة كما هي، واختفى النور الشديد النابع منها وعادت الكهرباء مرة أخرى، بنفس الطريقتين السابقتين ودون حتى أن يبدي مدحت أي ردة فعل، اختفى كل شيءٍ من أمامه ليظهر له شبيهه مرة أخرى، صاح مدحت في وجهه قائلا بتلعثم:

- أنت عملت كل ده ازاي؟

- أنت مين؟

ليرد عليه شبيهه قائلًا:

أنا، أنت.

(٦)

قرية مدحت.. التاسع والعشرين من فبراير - ١٩٩٢

غرفة بسيطة بها سرير مفروش بقش الأرز، رجل وامرأة نائمان، وقت شروق الشمس ورائحة نسيم منعش يرد الروح لمسكنها، صوت بلابل تصفر وتعزف أحلى المقطوعات الموسيقية، شعاع شمسي يضرب في وجه نعمان، يبرز ملامحه.. ملامح فلاح مصري أصيل بلون بشرته الأسمر وشعره الناعم وتجاعيد وجهه التي تظهر عليه بالرغم من صغر سنه، فهي حمالة مآسٍ ومتاعب هذا العمل الشاق.

استيقظ نعمان من نومه وارتدى جلبابًا متوسط الاتساع بلونه العاجي الداكن، وقبعة تحميه من أشعة الشمس يطلق عليه عامة الناس (طاقية) وباللهجة الفلاحي (طاجية) ليظهر بمظهر فلاحي أصيل ذاهبًا لأرضه، في يديه منديل مربع كبير يأخذ رسوماته من قطع الشطرنج، ولكن بمربعات ملونة يحمل فيه أكله، وفأسه الذي يحمله في يديه كما يحمل الجندي سلاحه، يضرب به الأرض وينثر

بذور الخير..

استقل نعمان حمارته في طريقه لأرضه جانيًا قوت يومه ويوم عائلته، يحمل في قلبه حزن على ولده الذي يمر بفترة نفسية صعبة متأثرًا بموت صديقه، وبالرغم من أن مضى على موته أربع سنين، إلا أنه ما زال كالندبة في قلب ولده ولم يقدر الزمن على مَحيَها، أدراك نعمان أن اليوم سيكون الأصعب على ولده، ذكرى وفاة فرحات في يوم عيد ميلاده، يا لها من مصيبة..! ستظل هذه الذكرى عالقة في قلب ولده حتى تعرج رُوحه لبارئها، فكر نعمان كثيرًا ماذا يفعل لكي يهون على طفله الآلام هذه الذكرى؟ وجدها نزهة تنسيه ما حدث ويضرب عصفورين بحجر واحد ويحتفل بعيد ميلاده.

أنهى الحاج نعمان عمله في أرضه وذهب (للأسطا رجب) السواق يخبره بأنهم سيتحركون اليوم على القاهرة؛ لزيارة بعض الأماكن الدينية مثل جامع الأزهر، الحسن والحسين، شارع المعز، وقضاء اليوم في حديقة الفسطاط..

أبدى (الأسطا رجب) اعتراضه مبررًا بما يحدث هذا اليوم قائلًا:

- يعني يا حاج أنت مش لاقي غير اليوم الأخبر ده ونتحرك فيه؟

ليرد عليه نعمان قائلًا:

- فيه إيه يا واد يا رجب ماله اليوم ده، ما هو يوم زي أي يوم من أيام ربنا؟!

- يوم من أيام ربنا يا حاج نعمان، مقولناش حاجة بس الكهربا اللي بتقطع واللي بيحصل كل أربع سنين في نفس اليوم ده يقلق ويخوف يا حاج، دا أنا سامع طراطيش كلام كده من كذا واحد في البلد أن اليوم ده ملعون، فيه جن لعن البلد بيظهر كل أربع سنين في اليوم ده مخصوص، بيقولوا إن عم محمود عامل الكهربا اللي مات من اتناشر سنة قتل ابن الجن ده - اللهم أما احفظنا يعني واجعل كلامنا خفيف عليهم - والجن ده وعشيرته بينتقموا من أي حد يروح عند المكان ده بالليل - الترعة وأرض الشعراوي والمحول - وبيقولوا كمان إن هما السبب في قطع الكهربا والسبب في موت فرحات، دا أنت تحمد ربنا يا حاج أن الواد مدحت بخير.

ليرد عليه الحاج نعمان وهو يضحك قائلًا:

- إيه الكلام العبيط ده يا راجل أنت، بقى راجل في سنك يقول الكلام الأهبل ده! وبعدين حتى لو فيه ألف جن أنت مش مؤمن بكلام ربنا اللي بيقول: (وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ)

ماحدش هيقدر ييجي جمبك يا رجب طول ما ربنا معاك، ولا حد هيقدر يضرك إلا بأذن الله، اعلم أن الأمة لو اجتمعت

على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

يعني لو الناس كلها إنس وجن اجتمعوا إنهم يضروك مش هيضروك إلا لو ربنا كتبه عليك، كمان الواد نفسيته وحشة بسبب موت صاحبه وعايز أفرحه وأنسيه همه اللي شاله في سن صغير، كل العيال في سنه بتلعب وتفرح وهو مش عايز يخرج من الدار..

بدموع غائرة تظهر في عين نعمان، كان يحاول أن يكتمها قبل أن تفلت منه موجهًا حديثه هذا للأسطا رجب.

ربت الأسطا رجب على كتفه قائلًا له:

- وحد الله يا راجل يا طيب، إن شاء الله كله هيبقى بخير وتمام ومدحت هيبقى زي الفل.

رد الحاج نعمان عليه قائلًا:

- إن شاء الله، اعمل حسابك هنتحرك الساعة حداشر ونص علشان نلحق نوصل ونصلي الفجر في جامع الأزهر إن شاء الله..

أدخل الحاج نعمان يده في جيب جلبابه، وأخرج من حافظة نقوده ورقة فئة الخمس جنيهات، ثم قال للأسطا رجب:

- دول مقدم واحنا راجعين إن شاء الله هتأخد الباقي، منتظرك

بليل سلام.

ليرد عليه الأسطا رجب بعدما أدخل النقود في جيب سرواله وهو يبتسم قائلًا:

- في رعاية الله يا حاج، هكون عندك في الميعاد إن شاء الله.

وصل نعمان لبيته بعد يومٍ شاق، أخبر سنية زوجته بميعاد رحلتهم ودخل لينام..

استيقظ الحاج نعمان قبيل صلاة العصر، ذهب ليؤدي فرض الله عليه، وبعد الصلاة ذهب هو والشيخ وهدان للقهوة، نادَ الحاج نعمان على النادل ليخبره بطلبه.. معسل قص معتبر وكوب من الشاي بالنعناع للشيخ وهدان.

رصَّ الحاج نعمان الفحم بنفسه، ووضع المبسم في فمه، ثم شد أول نفس وتحدث والدخان يخرج من فمه قائلًا:

- فيه سؤال شاغل تفكيري يا وهدان..

ليرد عليه الشيخ وهدان وهو يحتسي الشاي قائلًا:

- إيه هو يا نعمان؟

- أنت ليه ماخلتش منوت تساعدك زي ما ساعدتني؟ أنت وهنية لوحدكم والوحدة وحشة، بتسرق من العمر وبتقتل في الأحلام وبتنهش في اللحم، ليه ماكنتش منوت في حساباتك؟

ابتسم الشيخ وهدان ابتسامة بسيطة، ثم اعتدل في جلسته ناظرًا لنعمان قائلًا:

- فاكر رضا يا نعمان؟

- إيه اللي فاكره.. كان واد زي الفل البلد كلها تشهد له.

- أهو من بعد رضا - الله يرحمه ويبشبش الطوبة اللي تحت راسه - وأنا وهنية قررنا إننا مش هنخلف تاني، رضا كان حياتنا عايشين له وبس، كان شاب طيب الزمن جيّه عليه، مشي في طريق مش طريقه، ضحكوا عليه ولاد اللذينه وجرُّوه لسكة الرايح فيها مش راجع، لحد ما اتقتل وهو بيدور على حتة آثار، طمعوا فيه وقتلوه علشان الحتة تتقسم على أربعة بدل خمسة، ماقتلهوش هو بس قتلونا إحنا كمان معاه، ومن ساعتها قطعنا عهد أننا مش هنخلف ولا هنجيب عيال والحمد لله أنا وهنية مبسوطين كده.

ليرد عليه الحاج نعمان قائلًا:

- ربنا يربط على قلبك ويعوضك في حياتك ودنيتك خير، وفي الآخرة تشفعله وربنا يغفر له ويرحمه.

ليرد عليه الشيخ وهدان كاتمًا لنحيبه قائلًا:

- إن شاء الله.

ساد صمت للحظات، بعدها حاول الشيخ وهدان أن يغير

الموضوع فتحدث قائلًا:

- بس أنت كنت واقف مع رجب السواق النهاردة بتتكلموا في إيه؟! لمحتك وأنا خارج من الجامع.

رد عليه نعمان وهو يشد نفسًا من شيشته قائلًا:

- مفيش أصل الواد مدحت نفسيته مش عاجباني، هاخده في فسحة لمصر وأحاول أخرجه من اللي هو فيه، وأدعيله دعوتين أن ربنا يزيح عنه.

في هذه اللحظات نادَ المؤذن معلنًا موعد صلاة المغرب، قاما الرجلان ذاهبين للمسجد ليؤدُّوا الصلاة، بعدما انتهوا ذهب كل منهما لداره، كانت تربطهما علاقة منذ صغرهما لا يفترقا، ودَّع الشيخ وهدان صديقه قبل رحلته متمنيًا له السلامة في طريقه..

دخل نعمان منزله ليجد مدحت جالسًا يضم رجله إلى حد عنقه دافنًا رأسه بين ركبتيه، لم يلاحظ دخول والده فرمى الحاج نعمان السلام بصوت عالٍ حتى يفيق مدحت من سرحانه، رد مدحت السلام عليه، ثم ذهب الحاجِ نعمان إليه جالسًا بجواره، ربت على كتفيه ثم ضمه إلى صدره قائلًا:

- مالك يا مدحت قاعد كدا ليه يا حبيبي؟

ليرد عليه مدحت بعدما اعتدل في جلسته قائلًا:

- تفتكر فرحات في الجنة ولّا النار دلوقتي؟

- دي حاجة ميعرفهاش بني آدم يا ابني، ربك وحده اللي يعلم، كل اللي علينا إننا ندعيله إن ربنا يرزقه الجنة ويرحمه.

ليرد مدحت عليه بعدما نزلت دموعه جارية على وجنتيه قائلًا:

- أنا بدعيله كتير والله يا أَبَا وبصلي مرتين مرة ليا ومرة له وبقرا له قرآن كتير، تفتكر ربنا هيقبل مني ولا إكمني السبب في موته ربنا مش هيقبل؟

ليرد عليه والده بصوت هادٍ قائلًا:

- لا متقولش كدا يا مدحت يا حبيبي أنت مش السبب في موته ولا حاجة، أنت نصحته كتير إنه يرجع عن اللي بيعمله ومكنتش مطمن، هو اللي أصر أنه يروح قدره يا ولدي.

- واشمعنا هو بس اللي يموت اشمعنا أنا مموتش؟

- بعد الشر عليك يا ابني، حكمة ربنا أنه يخليك عايش علشان عارف أنت جاتلنا بعد تعب وقهر وسنين عجاف، أنت لو كنت جرالك حاجة كنا هنموت من بعدك أنا وأمك، استغفر ربنا يا ابني وادعي إنه يصبرك.

نظر مدحت إلى إصبعه البنصر، ثم نظر لوالده قائلًا:

- الخاتم ده بتاع فرحات وكان بيعزه أوي، كنّا بنلعب قبل ما

يموت بيوم ورهنته عليه لو كسبته هاخده، كل مرة كنت أقوله كدا يرفض ويقول نلعب على أي حاجة إلا الخاتم ده، إلا المرة دي وافق واستغربت ولعبته وكسبته لقيته قلعه وقام حاطه في إيدي وقفل إيدي عليه وقالي: "حافظ عليه يا مدحت وخلّي بالك منه، ومتقلعوش من إيدك مهما يحصل وابقى افتكرني بيه!"

في الأول مافهمتش هو بيقول كده ليه، بس هو كان حاسس، كان حاسس إنه هيموت ويسبني.

قبّل نعمان رأس ولده قائلًا له:

- قدره يا ابني أنت ملكش دخل بأي حاجة حصلتله.

- طب تاريخ ميلادي اللي مكتوب على جلبيته، اتكتب ازاي وامتى؟

- ما يمكن كان عملك مفاجأة بمناسبة عيد ميلادك وحب يفرحك ويكتب تاريخ ميلادك على جلبيته.

- مش عارف، أنا مبقتش عارف أي حاجة أنا تايه.

وقبل أن يكمل مدحت حديثه، سمع الحاج نعمان صوتًا خلف البيت، وكأن هناك أحدًا يحاول فتح باب الدار الخلفي، ذهب نعمان مسرعًا إلى المطبخ ليجلب سلاحًا أبيضًا (سكينة) ثم ذهب وخلفه مدحت ليتفحصوا الأمر، فتح نعمان باب الدار الخلفي فلم يجد

شيئًا سوى قطة سوداء تحدق بعينيها لمدحت بشدة، شعر مدحت بشيء غريب تجاه هذه القطة، وظل يتبادلون الأنظار حتى نادَ عليه أبوه يخبره بالدخول.

اطمأن نعمان وأخبر مدحت أن يستعجل والدته في تحضير العشاء؛ لأنهم يسافرون اليوم إلى القاهرة، تعجب مدحت وسأل والده عن سبب السفر، أخبره والده أنها رحلة لزيارة بعض الأماكن المحببة لقلبه، ولكن فَهَم مدحت أن والده يريد أن يلهيه لكي ينسيه ما بداخله، تناولت الأسرة عشاءها، وذهب كل منهم لغرفته للنوم ليريحوا أجسادهم حتى يحن موعد تحركهم، لم يذق مدحت النوم في هذه الليلة مثلها كمثل الليالي السابقة، يمتلئ رأسه بكثير من الأفكار جد عليهم هذه القطة، يفكر في ذاك الإحساس الغريب الذي شعر بع عندما رآها، ولماذا كانت تحدق له هكذا؟ ظل مدحت يسأل نفسه هذه الأسئلة حتى حان موعد تحركهم..

جهز الحاج نعمان أغراضه وأغراض عائلته ورصها في حقيبة سيارة الأسطا رجب الخلفية، ركبت العائلة السيارة وتحركوا جميعًا في طريقهم.

سأل الأسطا رجب الحاج نعمان ويمتلئ جوفه بالقلق قائلًا:

– أنت لسه مُصر على أننا نمشي في الوقت ده واليوم ده بالذات؟

ليرد عليه الحاج نعمان وهو يعنفه قائلًا:

- اللي هنقوله هنعيده يا رجب، ركز في طريقك وإن شاء الله خير.

ليرد عليه الأسطا رجب مستسلمًا:

طيب يا حاج.

نظر الحاج نعمان لولده بعين تحمل معانٍ ومشاعر أول مرة يراها مدحت في عينيه، تعجب مدحت ثم سأله:

- أنت كويس يا أَبَا؟

ليرد عليه والده قائلًا:

- كويس يا ابني تسمحلي احكيلك حكاية؟

طبعًا يا أَبَا اتفضل.

كان فيه زمان راجل ومراته كانوا عايشين حياتهم زي أي اتنين عايشين ربنا مرزقهمش بعيل، كان نفسهم في عيل يملى عليهم حياتهم، عملوا كل حاجة في الدنيا ممكن تتعمل راحوا لحكما ياما وعملوا تحاليل وخدوا أدوية ومفيش فايدة برده، جربوا الأعمال ورحوا لكام واحد وواحدة نصابين ودفعوا فلوس وخدوا أحجبة ومايه مقروء عليها أذكار وآيات وكل حاجة، لحد ما في يوم جيه راجل طيب قال لصاحبه عندي الحل، كان الراجل رضي بقضاء ربنا وحكمته وكان سلّم الأمر لربه، لكن صعبت عليه مراته اللي

كان نفسها في عيل، خد رأيها ووافقته وقالتله نجرب، سمع الرجل كلام صاحبه وسمع منه الحل، عارف الحل طلع إيه؟

- كان إيه يا أبا؟

كان منوت، روحنا لمنوت وساعدتنا بعد ربنا إننا نخلف، ومن ساعة ما أنت اتولدت إحنا كمان أتولدنا يا حبيبي.

ليقاطعه مدحت قائلًا:

- مين منوت دي؟

ليرد عليه أبوه قائلًا هقولك أما نوصل وإحنا قاعدين قاعدة حلوة كده، المهم يا ابني تاخد بالك من نفسك أنا مش هعيشلك طول حياتي، عيش الدنيا علشان ترضي ربنا وبس أو تفكر في يوم إنك تحاول ترضي عبد.

شعر مدحت أن والده يودعه بهذه الكلمات، وقبل أن يستفسر من والده قطع تفكيره صوت الأسطا رجب قائلًا:

- استغفر الله، استغفر الله!

ليسأله الحاج نعمان قائلًا:

- فيه إيه؟ وقفت العربية ليه؟

- قطة سودا جيت قدامي كنت هدوسها يا حاج.

– طب يلا دوّر العربية وسمي الله وامشي، خلينا نلحق نوصل قبل الفجر.

انقطعت الكهرباء عن البلدة في نفس اللحظة التي يتحدث فيها نعمان، سأل الأسطا رجب عن الساعة فأخبره أنها الثانية عشرة، ضغط الأسطا رجب على مفتاح السيارة لتشغيلها ولكنه فوجئ أنها لا تعمل، حاول مرة أخرى ولكن لا تعمل ليصيح الأسطا رجب قائلًا:

– يا الله، هي جاية تعطل في المكان ده بالذات!

ليرد عليه الحاج نعمان ضاحكًا محاولًا التخفيف عنه قائلًا:

– فيه أحلى من ده، منظر ترعة ونور القمر سايح على المايه.

ليرد عليه الأسطا رجب قائلًا:

– رايق أنت أوي يا حاج، قوم يا مدحت افتح الشنطة اللي ورا هات منها الكشاف علشان نشوف إيه اللي حصل وخلّي العربية تعطل.

فتح مدحت الباب ونزل من السيارة، وهو يغلق الباب وقع منه خاتم صديقه فنزل على الأرض ليلتقطه، وجد نفس القطة السوداء التي رآها خلف منزله تحت السيارة تنظر له وتحدق ثم اختفت، نظر يمينًا ويسارًا وجدها عند أرض الشعراوي تحدق له

بشدة، مشي مدحت ببطء خلف هذه القطة حتى اقترب من الترعة، اختفت القطة مرة أخرى، وحين كان مدحت عائدًا للسيارة وجدها انفجرت وبداخلها والده ووالدته والأسطا رجب، وحين نظر للترعة مرة أخرى وجد القطة ذاتها تقف وعلى ظهرها مكتوب بخطٍ من نار ٢٩/ ٢/ ١٩٨٠.

(٧)

إنها الوجه الملائكي التي رآها للوهلة الأولى جالسة مع أصدقائها في محيط كليته - كلية التربية جامعة المنصورة - الذي عاش فيها أجمل أيام شبابه، خطفت قلبه وتعلق قلبه بها، كان لديه حكمة دائماً، أن الحب ليس سببه الشكل والتفاهم أو الشخصية، إنما يربط الله قلوب الأحبة ببعضهم البعض، يرى الحبيب حبيبه من هنا دون أن يعرفه أو سبق له أن تحدث معه، ينتقل قلبه للعيش في جسم حبيبه ويصبح السكن الخاص به، ويكون غير قادر على فراقه مهما جار الزمن عليه، فتاة جميلة بشرتها بيضاء وشفتان مرسومتان على وجهها وعيناها الخضراء وحجابها الأحمر الذي يزين وجهها، يدب في وجنتيها احمرار طبيعي يجعلها كوردة الجوري في موسم ازدهارها، أحلى من معانى اللغة وأسمى من قواعد النحو، غزل عربي يقتل علماء اللغة والذي أصبح بعد ذلك غزل آية المفضل، خطفت قلبه وروحه وعقله، كان يرى الدنيا في عينيها وما زال، فهي بمثابة ركنه الآمن الصامت عن كل هم الدنيا ومتاعبها.

ذهب مدحت إلى بيته هذا اليوم وهو مغرم بحب آية، كانت أول امرأة يعجب بها في حياته، دار بين عقله وقلبه مناقشات عديدة

سببها هذا الحب، فتارة يقول له عقله:

- يا صديقي أنت شخص جيد تستخدم المنطق في كل شيء تمر به، من ذوات النفسية السليمة السوية، انطوائي بينك وبين الناس حاجز كبير، أقنعني كيف تدخل قصة حب بانطوائك هذا، أنت تخاف أن تلقي السلام على أحدهم حتى لا يفتح معك حديثًا.

ليتدخل قلبه قائلًا:

- لكنك مرح ومحبوب، حنونِ القلب، ما المانع أن تدخل قصة حب؟ ما المانع أن يكن لك شريكًا يفرح لفرحك ويحزن لحزنك، ما المانع أن تجرب أجمل ما خلقه الإله؟

- وإذا جرحته وزودت همه؟

- هل دخلت لوجدانها؟ هل رأيت ما تفكر فيه؟

- لكنِ هذا متوقع، هو ليس له علاقة بمخلوق في الكلية، هو وحيد دائماً والأفضل له أن يظل وحيدًا.

- بأي وجه حق تحكم عليه أن يظل وحده دائمًا؟

إن الوحدة ما هي إلا وحش كاسر يستنزف من نور الروح ويطفئها، يقتل كل حلم بداخلك، يأكل من سنوات حياتك مثلما يأكل الأسد فريسته، بأي وجه تحكم عليه أن يكون وحيدًا؟

أوقف مدحت هذا الشجار الدائر بين عقله وقلبه مؤقتًا ودخل

لينام وعلى وجهه سعادة كبيرة، ظل يحلم أحلام يقظة ويتخيل نفسه مع آية ويفكر في حياتهما وهما معًا، يفكر في ترتيبات الخطوبة والزواج، يفكر في كل شيء خاص بهما من قبل حتى أن يعرف اسم هذه الفتاة ومن قبل أن يتقابلا، ظل محدقًا في سقف غرفته يتخيل، ويتخلل سمعه في هذه اللحظة كلام الست في الراديو بجانبه وهي تقول: "آه من الحب وسيرة الحب وظلم الحب لكل أصحابه" "أهل الحب صحيح مجانين، صحيح مجانين" ثم يوقفه عقله قائلًا:

- نام، نام يا صديقي وانسى أحلامك الوردية هذه، أنت دائمًا منبوذ، صديقك الوحيد توفى ومن بعده لم تتعرف على غيره، نام واخلد في نومك يا صديقي، وأنسى.

كان بداخله صراع شديد الحدة بين شيئي صراع قلبه وصراع عقله، الأول يخبره بالاستمرار في قصة حبه وأخذ خطوة، والثاني يخبره بنسيان الأمر، وشيء ثالث صوت لم يعرف مدحت مصدره، يخبره بأنه سيتولى كل شيء، أهو صوت ضميره؟ لا يعلم.

مرَّت الأيام عليه والصراع الذي بداخله ما زال مشتعلًا، يوم بعد يوم يزداد لهب الحب في قلبه يطفئه نهر عقله الجاري، حتى قرر إنهاء هذا الخلاف الدائر والاستماع لعقله، قرر أن يحب من طرف واحد، كل مرة كان يراها كان يحبها أكثر ولكن ما باليد حيلة فهو منبوذ دائمًا..

اقتربت اختبارات السنة الجامعية الأولى، وكان مدحت فرِح القلب لسببين؛ أولهما أنه سيرى محبوبته بطلتها البهية كل يوم، والثاني أنه يعشق الدراسة والاختبارات ويريد أن يكلل مجهوداته ويخرج بأحسن النتائج، أدى مدحت اختبارات عامه الجامعي الأول وأبلى بلاءً حسنًا وبدأت إجازته الصيفية، تغلغل الملل لوقت مدحت وسيطرت آية على تفكيره، كان يصحو على حلم يجمعهما وينام على تخيل يجمعهما، وهكذا دارت أيامه حتى قرر أن يبحث عن عمل يقتل الملل ويلهيه عن حب آية، حتى وجد مطعمًا بسيطًا يطلب شباب للعمل كعاملين توصيل، ولكن يشترط أن يمتلك المقدم على العمل دراجة نارية، أرسل مدحت إلى أمه الثانية هنية أن ترسل له مبلغًا من المال لكي يستطيع شراء الدراجة وأبلغها أنه سيزورها قريبًا بعد أن يثبت قدمه في عمله الجديد، تعرف مدحت على أحمد وأصبح صديقه رغم أنه يكبره في السن، إلا أنه وجد فيه ما لم يجده في غيره، في كثير من الأحيان كان يعتبره في مقام والده بسبب نصائحه وخوفه عليه وتوجيهه إلى الأمور الصحيحة، كان يحبه أحمد كثيرًا ولم يعرف مدحت سبب هذا الحب، من الممكن أن يكون بسبب وحدته فجمعهم القدر سويًا، أم اشتياق أحمد للعائلة والأطفال لعدم زوجه لا يعلم حتى قرر أن يسأله..

وقت ظهيرة شمس أغسطس الحارقة، الثانية مساءً، يقف أحمد ومدحت يتبادلان أطراف الحديث في ساعة راحتهما..

- بقولك إيه يا أبو حميد عايز أسألك سؤال كده بس متزعلش مني.

ليرد عليه أحمد وهو ينفث دخان سيجارته قائلًا:

- اسأل يا حبيب أخوك إحنا بينا زعل!

تنحنح مدحت قائلًا:

- أنت راجل أهو داخل على الخمسة وعشرين سنة مبتفكرش في الجواز كده، حد يبقى شريكك يدلعك تدلعه.

تخرج هذه الكلمات من مدحت وهو يضحك حتى يخفف من حدة الموقف، رد عليه أحمد بعدما سحب آخر نفس من سيجارته ثم قذفها على الأرض ودهس برجله عليها، وعدل نظره ناحية مدحت قائلًا:

- مين قالك إني مافكرتش أتجوز، آه أنا لسه يعتبر صغير بس عمري ما كنت صغير بالنسبة لأبويا، من صغري وأنا عندي ست سنين وهو بيعتبرني راجل أقدر أجيب لقمتي ولقمة إخواتي كمان، كنا عشر أخوات ٦ رجالة و٤ بنات أول ما الواحد فينا يتم الستة على طول يروح يجيب لقمته أصل، هو هايعقد يزرب فينا واحد في التاني ويأكلنا كمان، يا جدع تصدق وتؤمن بإيه؟

ليرد عليه مدحت قائلًا:

- بالله الواحد الأحد.

أكمل أحمد حديثه بنبرة حادة يكتم بداخلها الالآم مريرة قائلًا:

- حتى البنت إما كانت تكمل الست سنين كان ينزلها تشتغل، لف في الشوارع بمناديل وسبح، تنزل بيوت تنضف تشتغل لا مؤاخذة خدامة، ونيجي بتعب اليوم كله وإحنا عيال صغيرة من حقنا نلعب ونتمتع بطفولتنا نرمي الفلوس في جيبه علشان يجيب سجايره ويأكلنا، ما هو أبونا بقي اللي بيصرف علينا، أنا كنت العيل التاسع قبل أختي نجوى الصغيرة، أول ما كملت سن الشغل بالنسباله نزلني عند ميكانيكي أتعلم صنعة، كنا ساكنين في المجزر وأنت عارف الحتة دي معظمها سمكرية علي ميكانيكة وأنت فاهم، كنت أنا النمرود اللي فيهم، كنت مقتنع بإن القرش اللي أجيبه أنا أولى بيه علشان ميشكش فيا، كنت باخد بريزة من الأسطا عطوة أديله ٣ قروش وأخد أنا السبعة الباقيين، ما هو ما دام أنا هاشتغل ومش هلعب مع العيال يبقى أخد حق شغلي، في مرة شك فيا إما شافني بجيب لنفسي لبس وأكل، لحد ما راح سأل الأسطا عطوة أنا باخد كام قاله وعرف وجيه اليوم ده رنني حتة علقة كنت هموت تحت إيده لولا أمي، وحلفت إني ما قعدله في البيت كنت في ساعتها عندي ١٠ سنين، هربت ولا سأل فيا من ساعتها روحت على القطر وركبت لمصر ونزلت الحرفيين أدور على شغل بالصنعة

بتاعتي، يوم في اتنين في تلاتة ماحدش عايز يشغلني وفلوسي قربت تخلص، روحت صليت ودعيت ربنا إنه يكون معايا، تخيل يا مؤمن إن عيل صغير ماكملش ١١ سنة في الهم ده كله!

صمت أحمد قليلًا وخفض رأسه ناظرًا للأرضٍ، ثم أخرج من علبة سجائره واحدة وأشعلها ثم أكمل حديثه قائلًا:

- نمت في الجامع لحد صلاة الفجر لحد ما لاقيت راجل بيسألني نايم في الجامع ليه يا ابني؟ حكتله كل حاجة فا طبطب عليا وقالي: تعالى أنا عندي ليك شغل.

طلع أسطا ميكانيكي وعنده ورشة تحت بيته، خدني وشغلني وكساني وعيشني معاه في بيته لحد ما كملت ١٥ سنة، اتفقنا إني أخد أوضة فوق السطح علشان سعاد كبرت، سعاد دي كانت بنته حبينا بعض من أول ثانية اتقابلنا، كنا بنلعب مع بعض وعيشت طفولتي الضايعة معاها، كنا متفقين إني أول ما أكمل التمنتاشر أطلبها من الأسطا كامل على طول، كملت التمنتاشر مع نفس الرجل الطيب وماتغيرش معايا للحظة، كل سنة كانت بتعدي كنت بشوف فيه معنى الأبوة الحقيقي ومراته الست نوال كانت أميرة، من أول ما نقلت على السطح وكل يوم كانت تبعتلي أكلي مع سعاد، وكنت أشوفها وهي جايالي بصنية الأكل بعد العصرية والشمس ضاربة في وشها مبينة لون عينها العسلي مخليها ملكة جمال، مرِّت السنين

وروحت أطلب سعاد من أبوها ووافق وقالي: مش هلاقي أحسن منك يا ابني..

اتخطبنا وفي يوم سعاد حست بصداع شديد أوي في راسها، روحنا نكشف طلع عندها سرطان في المخ، الخبر ده نزل عليا كالصاعقة، مفيش دوا نافع مفيش حاجة نافعة وبعد سنة حصل اللي كنت خايف منه سعاد ماتت بسرطان في المخ!

أخرج أحمد محفظة نقوده ظهر من طرفها صورة سحبها أحمد، وأراها لمدحت ثم أردف:

- شوف زي القمر كانت منورة حياتي وحياة أبوها، كانت شمسي ونهاري بس بعد ماتت شمس حياتي، اختفت وبقى مبيطلعش عليا صبح وعايش نهاري وليلي في ضلمة.

أدخل أحمد الصورة في محفظته، ثم مسح دمعة هاربة على خده وأكمل حديثه قائلًا:

- من بعد ماتت أبوها وأمها سافروا لأهلهم في البلد وهيعيشوا هناك للأبد، متحملوش الصدمة باعوا الشقة علشان يعرفوا يعيشوا بقية حياتهم في البلد، فكرت أعرض عليهم أشتريها بس هما مش هيوفقوا أنا عارف، فا بعت حد يشتريها بكل الفلوس اللي محوشها طول السنين دي، اشتريتها وسبتها لروح سعاد ترفرف فيها، وحلفت ما حد هيخطى عتبة الشقة بعدها، ونزلت هنا أبدأ

من جديد، روحت لقيت أبويا وأمي ماتوا في حادثة وهما رايحين يحجوا بعد ما كسبوا في قرعة، وكل أخ من إخواتي متجوز ومخلف بقيت خال وعم، اتفقوا إنهم يقعدوني في شقة أبويا وأمي ودورت علي شغل لحد ما جيت هنا، ومن بعد سعاد أخدت عهد على نفسي إني ما اتجوزش ولا أحب بعدها، عرفت ليه مش عايز أتجوز يا مدحت؟

أومأ مدحت برأسه إيجابًا، ثم ربت أحمد على كتفيه وأخبره أن عليهما العودة للعمل.

أنهى مدحت هذا اليوم بجسد متعب وأفكار متضاربة، بعدما سمع حكاية أحمد دارت المعركة مرة أخرى بين قلبه وعقله بعد أن كانت هدأت، زاد تمسكه بحب آية، وفي نفس الوقت زادت فكرته بهجران هذا الحب، قرر أن يؤجل الموضوع والتفكير فيه لبعد زيارة هنية.

نفس الرائحة التي تحمل ذكريات مريرة وحزن سوداوي، رائحة الزرع وصوت خرير الجداول، رجال يمتطون عربات يجرها حمير، الكثير من الجلابيب والعمم، البلدة كما هي لم يتغير فيها شيء، بمجرد أن خطت قدمه أرض البلدة تذكر كل شيء.. أيامه بحلوها ومرها، تعود الذكريات لعقله كأنها شريط جار يمر أمامه عينه، مرَّ مدحت على كل شيء، رأى الترعة والمحول بعد أن عفى عليهما

الزمن، ورأى فرحات خلف المحول، رأى سيارة تحترق بداخلها رجل ينظر له ويبتسم ابتسامة بريئة ثم يرفع يده ويودعه، يرى ثلاثة أشخاص جالسين عند الترعة على كراسي مقيدين ليس قادرًا على تحديد ملامحهم، وحين دقق النظر وجد شخص ينظر له ويضحك له ثم رفع يده إلى جبهته ويودعه بنفس طريقة التحية العسكرية.

- مدحت واحشتنا يا راجل، أنت فين من زمان؟

قطع شروده نعم أنه هو، رمضان ابن عم سعيد عامل القهوة، والذي توارثها عن والده..

- أنتوا أكتر والله يا رمضان، أخبار البلد إيه؟

- البلد بخير يا مدحت من بعد ما أنت مشيت بنوا سور عند الترعة، وحفروا في نص السور باب صغير يخش منه اللي عايز يسقي الأرض بس، وهدوا مبنى أسطا الكهربا ونقلوه من مكانه خلوه في نص البلد.

تعجب مدحت حتى سأل السؤال الذي كان بمثابة الصدمة بالنسبة له قائلًا لرمضان:

- طب ليه كل ده؟

لينظر رمضان على الأرض ثم تنحنح قائلًا:

- الصراحة يا مدحت أهل البلد كلهم كانوا مقتنعين إن أنت لا

مؤاخذة في الكلمة يعني فقر، إلا أنا طبعًا أنت واد مجدع ورجولة، معاك سجارة؟

رد مدحت عليه والغيظ يكمن بداخله ظاهرًا عكس ذلك قائلًا:

- أنت عارف إني مبدخنش.

ليرد عليه رمضان بعد ما أخرج من جيب الصِديري سيجارة، ثم أشعلها بعود ثقاب مكملًا حديثه قائلًا:

- آه صح، المهم اقترحوا أنهم يبعدوا عن الشر ويبنوا السور وينقلوا مكان المبنى، مكذبش عليك معظم أهل البلد فاكرينك أنك ملبوس وليعوذ بالله من ساعة موت صاحبك، وزاد عليهم موت أبوك وأمك ربنا يرحمهم يا رب، لكن أنا طبعًا مش مصدق كل ده إحنا كلنا هنا بنحبك.

ليرد عليه مدحت بعد ما ربت على كتفيه قائلًا:

- باين، باين يا روميو.

غادر مدحت من أمامه، كاتم غيظه يريد أن يركل كل شيء أمامه، مرددًا في عقله كلمة واحدة طوال طريقه لمنزل هنية..

- فلاحين، وتفكيرهم ده هو اللي هيوديهم في داهية.

وصل مدحت لمنزل هنية، أو دعنا نقول منزله القديم، تذكر كل شيء، ظل واقفًا أمامه قرابة الربع ساعة يتفحصه، دلف مدحت إلى المنزل بعدما جار عليه الزمن، جدرانه متآكلة، مجددة ببعض من الطوب الأحمر، رائحته عفنة تشبه رائحة عفن الخبز، أصبح كخرابة مهجورة لم تعرف شمس طريقًا له، الاقي مدحت السلام المعتاد على أمه قائلًا:

- سلامو عليكو يا أمّا، أنا جيت!

لم يرد أحدٌ عليه، لم يسمع مدحت صوت هنية ولا صوت ضحكتها التي يرن أرجاء المنزل فور وصوله، بحث عنها حتى وجدها في غرفة الشيخ وهدان - رحمه الله - نائمة على أريكة خشبية، منظرها يدعو للشفقة، وجهها أصغر وعيناها واسعتان، ترتدي عباءة سوداء وشال أسود تلف به نفسها، وقطعة سوداء من القماش تغطي بها شعرها، تمسك في يدها منديل من القماش تمسح به المخاط من أنفها، دلف مدحت بداخل الغرفة وأيقظها مجرد ما رأته احتضنته قبّل مدحت رأسها ثم أردف:

- قلقتيني يا أمّا، فيه إيه مالك والبيت حاله متدهور كده ليه؟

اعتدلت هنية في جلستها ونظرت لمدحت قائلة:

- أنا كويسة يا ولدي أنت إيه أخبارك وأخبار دراستك.

- أنا الحمد لله يا ست الكل، ولاقيت شغل الحمد لله وبشتغل أهو وبصرف ومش محتاج حاجة.

- ليه يا ولدي، ما أنا ببعتلك فلوس كل شهر، مش بتكفيك؟ أزودهملك؟

- لا يا أمّا بتكفيني ومستورة الحمد لله، بس أنا حبيت أعتمد على نفسي شوية.

- تعتمد على نفسك إيه يا واد يا أهبل أنت، ما هي فلوسك في الأول وفي الآخر وخير زرعة أرضك.

- هو فيه فرق بين فلوسي وفلوسك، وكمان أنا بفكر أبيع الأرض.

تغيرت ملامح هنية، وشهقت ثم وضعت يدها على صدرها قائلة:

- وهتبيع الأرض ليه يا واد؟

- مفيش يا أمّا فكرت أبيعها وخلاص.

نظرت هنية في عين مدحت ثم أردفت قائلة:

- أنت بتكدب يا واد، أنت سمعت كلام أهل البلد صوح؟

- صح يا أمّا.

- بقى واحد متعلم زيك في مدرسة المدرسين ياخد على كلام ناس مبيعرفوش يفكوا الخط، دماغهم مقضيهم على كده يا ولدي من صغرهم متربين على حكايات الجن والعفاريت، سيبك من الحديت الماسخ ده وأقوم أعملنا كوبايتين شاي من إيدك الحلوة دي عشان عايزاك في كلمتين مستعجلين.

- حاضر يا أمّا.

كانت هكذا هنية دائمًا تطمئنه وتخرجه من سجن تفكيره، لم ينسَ مدحت حضنها بعد حادث والديها الأليم الذي انتزع أرواحهما دون شفقة، لم ينسَ نومها بجانبه لكي تنتشله من كوابيسه الذي أصبحت تتردد عليه بعد الحادث كل يوم، لم ينسَ وقفتها بجانبه هي والشيخ وهدان، يدين لهم بالكثير ويعتبرهما طوق النجاة من الغرق في بحر أوهامه وأحزانه، دخل مدحت للمطبخ وأشعل الموقد الكحولي المعروف عند العامة بالسبرتاية، ثم وضع عليه إناءً فيه ماء وتركه يغلي وجهز كوبين من الشاي ووضع فيهما حبات السكر والشاي، دلف مدحت للغرفة القاطنة فيها هنية ثم أعطاها كوبًا وأخذ هو كوبًا، افتتحت هنية حديثها قائلة:

- بس يا ولدي الكلام اللي هقوله ده تركز فيه وأتمنَّى نظرتك متتغيرش فيا ولا في وهدان.

رفع مدحت حاجبيه متعجبًا ثم قال:

– خير يا أمّا قلقتيني.

– مفيش قلق ولا حاجة يا ولدي..

– بُص يا ولدي كل نفر في الدنيا دي بيغلط سواء كانت غلطاته دي كبيرة أو صغيرة في الآخر اسمها غلطة، ماحدش بيبص لتأثير الغلطة دي في النهاية اسمها غلطة، وهدان غلط ومكدبش عليك أنا كمان غلطت إني مسكت في ديله ووافقته، يعلم ربنا يا ولدي قد إيه أنا ماكنتش موافقة على أي حاجة هو بيعملها، كنت عارفة أن أخرته وحشة وربنا مبيسبش ظالم ينشر ظلمه في الأرض، ماكنش ليك ذنب أنك تتحط في كل ده، وهدان وأبوك كانوا زي الشجرة وفروعها مابيفترقوش مع بعض من صغرهم، إما حصل اللي حصل الطمع عماه وفضل يقنع نفسه أنه كده بيساعد أبوك، أنا كتبتلك الأرض اللي ورثتها من وهدان والبيت اللي إحنا قاعدين فيه يمكن يشفعوا لينا عند ربنا.

بدأ صوت هنية يتغير ولم تقدر على إخراج كلمة واحدة، أشارت بيدها لمدحت على الإناء الذي يُحفظ فيه المياه ويسمى عند العامة (البلاص) ثم قالت:

– ناولني يا ابني بوق مايه.

قام مدحت من مكانه مهرولًا ومسك الكوب الموضع فوق الإناء، ثم وضعه في الإناء وملأه بالماء وأعطاه لهنية، انتظرها حتى

ارتوت ثم أردف قائلًا:

– أنا مش فاهم حاجة يا أمّا تقصدي إيه وإيه أسامحكم دي، دا أنا من غيركم ماكنتش هابقى عايش.

مسكت هنية منديلها ومسحت بقايا الماء من على فمها ثم أردفت بتلعثم قائلة:

– متقطعنيش يا واد وأنا بتحدت واسمع للآخر.

ليستسلم مدحت قائلًا:

– كملي يا أمّا كملي.

أكملت هنية حديثها بصوت مبحوح قائلة:

– في يوم من الأيام هتعرف الحقيقة كاملة، بس إما تعرفها أتمنَّى تعرف أن كل إنسان بيغلط ومبيعرفش عواقب الغلط إلا بعد مدة، أتمنَّى تسامحنا أنا ووهدان وتفتكرلنا الحلو قبل الوحش، ولو عايز تاخد بتارك خد بتارك منـــ..

وقبل أن تكمل جملتها بدت هنية تلتقط أنفاسها بصعوبة بالغة حتى نطقت جملتها الأخيرة:

– سامحنا يا ولدي سامحنا!

ثم همد جثمانها وعرجت روحها إلى خالقها، لتقابل ربها تاركة

لمدحت حزنًا فوق حزنه وأسئلة مريرة تحتاج لإجابات، هربت دمعة على خد مدحت تابعتها دموع غريزة، اقترب منها أخذها في أحضانه ناطقًا بآخر جملة لها قائلًا:

- حتى أنتِ، حتى أنتِ سبتيني لوحدي يا هنية.

لم يجد ما يقوله، تعبيرات وجهه ودموعه السائرة تقول كل شيء، فُتح باب الدار ودخل الجيران والنساء يصوتن ويعيطن بحرقة ومدحت يقف محدقًا لهنية في عالم آخر، مقتنعًا أن هذا كابوس وسيصحو منه حتمًا، حتمًا سيصحو منه.

صوان مشيد وشيخ يقرأ كتاب الله بصوت عذب، أنوار كثيرة وكراسي جالس عليها أناسٍ ومدحت واقفًا غير مصدق لماذا يقف هنا؟

يأخذ عزاء من؟

ماذا يفعل هؤلاء؟

انتهى كل هذا وذهب مدحت لبيت هنية جالسًا على أريكته، يلف نفسه بملابسها تنزل دموعه مكونة على الأرض بركة من الماء ليقطع هذه اللحظة صوت شخص ينادي، قام مدحت بعد أن مسح دموعه، فتح الباب وجد شخصًا يرتدي سروالًا بنيًّا وقميصًا زيتيًّا يمشط شعره على الجانبين بفرق واضح في منتصف رأسه،

يرتدي نظارة طبية بعدسات دائرية تحتها شارب صغير وفي يده حقيبة صغيرة قائلًا له:

– أهلًا يا أستاذ مدحت أنا نوفل أو المتر نوفل المحامي الوحيد في البلد.

ليرد عليه مدحت قائلًا:

خير يا أستاذ نوفل؟

– هنتكلم على الباب؟

– آسف جدًّا، اتفضل!

دخل مدحت ونوفل إلى الدار، اعتذر مدحت له على حالة الدار المزرية، أجلسه على أريكة في صالة الدار ثم قال له:

– تشرب إيه؟

ليرد عليه نوفل وهو يعدل بيده نظارته قائلًا:

– لو فيه عناب صاقع يبقى كويس أوي.

ليرد عليه مدحت متعجبًا:

– عناب؟

– إيه مفيش خلاص خليها قهوة مانو.

دخل مدحت للمطبخ وعاد بعد دقائق في يده كوبًا من القهوة وضعها أمام نوفل وجالس أمامه، التقطها نوفل واحتسى رشفة منها ثم بدأ حديثه قائلًا:

- أولًا: البقاء الله ربط الله على قلبك.

- حياتك الباقية.

ثانيًا: الحاجة هنية - رحمها الله - شكلها كدا كانت حاسة بكل حاجة، فا كلمتني من كام يوم وطلبت مني عقود بيع وشرا وكتبتلك البيت وحتة الأرض اللي في آخر البلد واشترت حتة الأرض اللي جنب أرضك وكتبتهالك، ودي العقود أهي موثوقة، وقالتلي أوصي أن الشغل في الأرض يفضل شغال وأنا هاتولّى الإشراف بنفسي وهبعتلك نصيبك بعد ما أخصم منهم ١٠٪ حقي، على البريد زي ما كانت بتعمل الحاجة هنية بالظبط.

ثم وضع حقيبته على فخذه وفتحها وأخرج منها أوراق أعطاها لمدحت وغادر مستأذنًا.

وضع مدحت الأوراق على المنضدة، وجلس لف نفسه بملابس هنية وشالها، ثم مسك منديلها في يده واستلقى نائمًا بكل ما فيه من الآلام..

استيقظ مدحت من نومه وشحذ همته للمغادرة استعدادًا لبداية

السنة الجامعية الثانية، غادر هذه البلدة التي لم تنصفه ليوم واحد..

وصل المنصورة ولكن بمجرد أن خطت قدمه باب منزله شعر بشيء غريب.. شيء كان يتذكره ولم يعد يتذكر منه شيء.. شيء مُحِي من ذاكرته، تعجب هو يفتح حقيبته ووجد أوراق منثورة بجانب ملابسه فتحها ثم أردف:

- كان نفسي أكون معاكِ قبل ما تموتي يا هنية، كان نفسي أودعك بس ماعرفتش.

(٨)

- يا شيخ وهدان.

- يا شيخ وهدان.

- افتح يا شيخنا، فيه مصيبة.

استيقظ الشيخ وهدان من نومه مفزوعًا، ارتدى جلبابه ثم ركض للباب مهرولًا ليرى من هذا الطارق الصائح وما هذه المصيبة، فتح الشيخ وهدان الباب ليجد عامل القهوة سعيد منظره يدعو للقلق يتلعثم بالكلام، جسمه يرتعش هدأه وهدان قائلًا:

- فيه إيه يا واد يا سعيد مالك مش على بعضك ليه؟!

رد عليه سعيد هو يخرج الكلام بصعوبة قائلًا:

- العربية اللي كانت هتوصل الحاج نعمان لمصر ولعت بكل اللي فيها، مفضلش غير مدحت ومش عايز يتكلم يقول حصل إيه، تعالى.. تعالى معايا بسرعة.

دلف وهدان للداخل أخبر زوجته هنية في عُجلة وهندم ملابسه، وخرج لسعيد ركب الحمار خلفه في طريقهم للترعة.

سأل الشيخ وهدان سعيد للمرة الثانية عن الحادث، أخبره سعيد أن كالعادة الكهرباء كانت مقطوعة، وكان هناك رجلًا قادمًا من أرضه في البلدة المجاورة، رأى مدحت منتصبًا ينظر للترعة دون أن يجفن له رمش، وفي نفس اللحظة التي آتت فيها الكهرباء انفجرت السيارة بداخلها الحاج نعمان وزوجته والأسطا رجب، لف مدحت رأسه ناحية السيارة لوهلة ثم نظر للترعة مرة أخرى، وهو على هذا الحال منذ نصف ساعة تجمع أهل البلدة جميعهم عند مكان الحادث ولا أحد قادر أن يحركه من مكانه أو يقترب منه، اتصل عامل الكهرباء على المطافئ والإسعاف وهم في طريقهم الآن للبلدة، حاول الأهالي إطفاء السيارة وجلبوا عدة أوان محاولين ملأها من الترعة، ولكن تراجعوا وخافوا، وحتى هذه اللحظة ما زالت النار تمسك في السيارة وحرارتها شديدة، لم يقدر أحد على الاقتراب منها عدا مدحت لا يشعر بأي من هذه الحرارة فهي بالنسبة له كنار إبراهيم.

وصل الشيخ وهدان لمكان الحادث تزامنًا مع وصول سيارتي المطافئ والإسعاف، أخمدت المطافئ النار وأخرج المسعفون الجثث متفحمة، وحين حاول أحدهما تحريك مدحت من مكانه صاح فيه وصرخ بأعلى صوته قائلًا:

- أبعد عني، أمشوا من هنا كلكم مش عايز أشوف حد فيكم.

ثم جسا على ركبتيه ماسكًا كومة من التراب في يده محدقًا على الترعة ثم قذفها ناحيتها قائلًا:

- خدي اشربي ده دم فرحات على دم أبويا وأمي، ويا عالم فيه دم مين تاني.

بكى حتى انتهت دموعه، تدخل الشيخ وهدان وأبعد أعيان الناظرين عنه، وطلب منهم المغادرة، وأخبر الإسعاف أنه سيتولى الأمر ومن الأفضل لهم المغادرة الآن، اقترب منه جاسيًا على ركبتيه مثله، ملس على جسمه بيده ثم احتضنه قائلًا:

- كل حاجة هتبقى تمام يا ولدي، قوم معايا نروح الدار وأوعدك كل حاجة هتبقى تمام يا ولدي.

أبعد مدحت يده عنه ثم نظر له وهو يظرف بحرًا من الدموع قائلًا:

- أبويا وأمي ماتوا قدامي يا شيخ، وقبلهم صاحبي، أنا السبب في كل ده أنا السبب في كل ده.

ليرد عليه الشيخ وهدان بنحيب في صوته محاولًا كتمه قائلًا:

- وحد الله يا ولدي لكل أجل كتاب وده قدرهم، هنعترض على قدر ربنا..!

رد عليه مدحت وهو يضرب بيده الأرض قائلًا:

- هو القدر مورهوش غيري.

- وحد الله يا ولدي، ربنا بيختبر صبرك وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه.

- يعني أنا كده ربنا بيحبني يا شيخ؟

- ربنا بيحب عباده كلهم يا ولدي، ومفيش حد أرحم علينا منه سبحانه، قوم بس معايا نروح البيت بدل القاعدة دي.

نظر له مدحت بحزن ثم قام من على الأرض تبعه الشيخ وهدان وذهبوا بخطوات بطيئة تأكلهم أعيان الناظرين وألسنتهم..

وصلوا لمنزل وهدان دلفوا للداخل ليجدوا هنية تنتظرهم على أحر من الجمر والنار، بمجرد أن رآته احتضنته وقبّلت رأسه ناطقة بأذكار قارئة المعوذتين وآية الكرسي، ثم أخذته من يده للحمام وخلعت ملابسه وملأت إناءً بالماء يستعمل لغسل الملابس ويسمى عند عامة الناس (طشت) وأجلسته فيه ماسكة في يدها قطعة من اللِيف أملأتها بالماء والصابون ثم دعكت بها جسم مدحت وصبت علِيه الماء، ومدحت محدقًا أمامه لا يبالي بكل ما يحدث، يفكر في القطة وفي والديه وما حدث لهما، يفكر في سبب منطقي لتاريخ ميلاده الذي يظهر بعد كل مصيبة ويظهر هو مكتوب بخط من نار، ما علاقته بهذه المصائب ولماذا هو؟

انتهى ما كانت تفعله هنية وأخذت مدحت من يديه كالطفل الصغير لداخل الغرفة، أزاحت بعض من الأشياء القديمة (كراكيب) لتخرج من ورائها علبة مصنوعة من الورق المقوي التي تسمى (كرتونة) أخرجت منها ملابس قديمة وكست بها مدحت ثم أجلسته على السرير وفردت ظهره وغطته بغطاء من الصوف لينام خائفة عليه من كوابيسه التي حتماً ستراوده، لم تتركه حتى نام ثم خرجت من الغرفة وأطفأت لمبة الجاز المنيرة، وذهبت للغرفة المجاورة لتجد وهدان جالسًا يضع يديه على رأسه ناظرًا للأرض جلست بجانبه وربتت على كتفه قائلة:

- روق يا وهدان، إن شاء الله هيكون بخير.

نظر لها وهدان ثم ابتسم قائلًا:

- تفتكري إحنا السبب؟

- تفتكري ده له علاقة باللي حصل زمان؟

صمتت هنية للحظات ثم أردفت قائلة:

- والله ما عارفة يا وهدان، بس إحنا عملنا إيه غلط، نعمان وسنية ربنا يرحمهم كانوا نفسهم في عيل، ساعدناهم في إنهم يجيبوا العيل، قولتلك قبل كده أن الموضوع غريب إنها تتطلبه بالاسم، بس مش مهم كل ده، المهم إنهم حققوا المراد وخلفوا الواد.

– طب وكل اللي بيحصل للواد ده يا هنية إيه سببه؟

– يا راجل دا أنت حافظ لكتاب الله وعارف دينك كويس، قدر ربنا هنعترض؟

– مهما كان إيه حصل وإيه هيحصل أنا هربي الواد ده كأنه ابني بالظبط، مش هخليه محتاج حاجة، هعلمه وأكبره وأخليه راجل وهحاول أصلح أي غلط عملته زمان.

– وأنا هكون له أمه ومش هخليه محتاج حاجة، قوم كمل نومك وبكرا ربنا يحلها إن شاء الله.

مدحت الطفل الحامل على كتافه جبال بداخله الآلام مريرة كلما يطيب واحد منهم يأتي آخر يشعل لهب حزنه مرة أخرى، ظل هذه الليلة مستيقظًا لم يعرف النوم طريقًا له، وحين يغمض جفن من جفونه تمرُّ أمامه ذكرياته، تذكره بكل ما مرَّ به، تراوده كوابيسه التي طالما كان يحاول الهروب منها، انطفى قلبه وأصبح كبقعة سوداء، فقد الإحساس بكل شيء، كل ما يريده الآن أن ينام.. ينام نومًا طويلًا لا قيام له..

أشرقت شمس يوم مرير آخر، يسمع مدحت كل شيء حوله زقزقة العصافير، وغناء البلابل ويتمنَّى لو كان مثلهم، يا ليته كان خُلق عصفور أو بلبل لا يبالي لشيء، لا يهمه شيئًا سواء مقاومة غريزة الجوع والبحث عن الطعام نهارًا والنوم في الجحور ليلًا،

دخلت عليه هنية في يدها صينيّة عليها كل ما تشتهي الأنفس، تظاهر مدحت أنه نائم، ولكن كشفته هنية جلست بجانبه قائلة له:

- يلا يا مدحت يا حبيبي، الفطار جاهز وجبتهولك لحد السرير أهو مع انى عمري ما عملتها مع وهدان، لكن أنت طبعًا حاجة تانية.

ليرد عليها مدحت قائلًا:

- تسلمي يا خالة مش جعان.

لترد عليه هنية معاتبة له:

- خالة؟ يا واد أنا أمك وواحشتني الكلمة دي أوي ينفع تقولهالي؟

- نظر مدحت على الأرض للحظات ثم نظر لها قائلًا:

- من عيني يا أمّا حاضر.

لترد عليه هنية والسعادة تغمر وجهه قائلة:

- يحضرلك الخير يا حبيبي، يلا بقى علشان تأكل أنت مأكلتش حاجة من امبارح يا بني.

- مش جعان والله، أنا مبسوط كده.

- طب هحكيلك حدوتة تساعدك على الأكل ماشي؟

ليرد عليها مدحت قائلًا:

– ماشي.

بدأت هنية في السرد..

– كان يا ما كان في سالف العصر والأوان وما يحلى الكلام إلا بذكر المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام.

– عليه أفضل الصلاة السلام.

– كان فيه عيلة صغيرة عايشين في تبات ونبات، العيلة دي كانت بتتكون من أب وأم وطفل صغير، عايشين حياتهم زي الفل وفي سعادة وهنا، يوم ورا يوم الأب يروح شغله علشان يجيب الأكل للعيلة، والأم تفضل في مطبخها تجهز الأكل لابنها وأبوه، والابن في الشارع بيلعب، ربُّوه أحسن تربية وعلموه أصول دينه، الأيام عدت بسرعة وكبر الابن وبقى راجل شنبه مالي وشه وبقى يخوف، مبقاش يسمع كلام أبوه ولا أمه، بقى طايح في الناس ماحدش عارف يوقفه، بقى ظالم وأمه شايفة ده بعينها ومش عارف تعمل معاه إيه، الابن ده يقعد طول النهار والليل مع الناس الوحشة في الجبل يسمع حكاويهم وياخد من خصالهم العفشة قبل الحلوة، الأم فاض بيها والأب فقد الأمل فيه لحد ما في يوم الواد ده دخل على أبوه وأمه عايز فلوس، أبوه مرضاش يديله قام ماسك أبوه ضربه وعدمه العافية، الأم واقفة مش عارفة تعمل إيه قعدت مع

نفسها تفكر، لحد ما طلعت بفكرة، راحت لحد من الناس العفشة دول اللي في الجبل واتقفت معاه أنها هتديله خمسة كيلو دهب مقابل أنه يقتل ابنها، لأن الواد اللي يمد أيده على أبوه يستاهل الموت، ابنها اتقتل وهي فرحت لموته وحزنت لموته في نفس الوقت في الأول والآخر ده ابنها، عاشت طول سنين حياتها بتفكر تقتل نفسها، بعده عاشت طول حياتها بذنب مش عارفة اللي عملته ده صح ولا غلط، عاشت من غير ما تعرف أبوه أن هي السبب في موته، بس عاشت عارف ليه يا ولدي؟

ليسألها مدحت وهو يصب تركيزه كله على ما تحكيه قائلًا:

– ليه يا أمّا؟

– علشان تعيش لأبوه اللي ملوش ذنب، علشان واجبها أنها تفضله سنده تاخد بالها منه تكون مراته وأمه وصاحبته وبنته تكون له كل حاجة يا ولدي..

– الحكاية دي حقيقية صح؟

– صوح، الحكاية دي اللي أنا عشتها أنا ووهدان ورضا.

نظر لها مدحت بتعجب ثم أردف:

– رضا، ابنك؟

– أيوة.

- أبويا - الله يرحمه - كان حكالي عنه وقالي إنه كان مجدع وابن حلال لحد ما اتلم على ناس بوظته.

- هو كان فعل كدا لحد ما ضرب أبوه، أنا آمنتك على السر ده وحدك يا ولدي ومش هقوله لحد غيرك، حكتلك الحكاية دي لغرض واحد إنك تنسى وتعيش، الحياة بتفضل ماشية يا ولدي بنفارق ناس كتير بنحبهم بس بتفضل ماشية..

قطع مدحت لقمة من الفطير وغمسها في العسل الممزوج بالطحينة وأكلها ثم احتضن هنية، ضمته إلى صدرها ثم قالت له:

- هقوم أعملك كوباية شاي بالنعناع عجب علشان تهضم بيها.

ومنذ هذه اللحظة توطّدت علاقته بهنية وأصبحت تمثل له كل شيء..

باع وهدان منزل مدحت بعدما نصبه مدحت واليًا عليه واشترى قطعة أرض سجلها باسمه وفتح له دفتر توفير ووضع فيه كل ما تجنيه الأرض من مال، جعله يكمل تعليمه وأخذه معه للأرض ليتابع ماله بنفسه ويصبح مشرفًا على عمالها، واستقرت حياة مدحت نسبيًا حتى وفاة وهدان راسماً بوفاته قطعة سوداء أخرى في قلب مدحت، ولكن كانت هي في الميعاد دائماً، أنسته همه مرة أخرى وأبعدته عن هذه البلدة، اشترت له شقة في مدينة المنصورة منذ أن أكمل الثمانية عشر عامًا رغم رفضه الشديد أن

يتركها لكنها أصرت، وعهدته أن يبلي بلاءً حسنًا في دراسته وأن يفرحها بمجموعه في الثانوية العامة، وبالفعل حصل على مجموع جيد ودخل كلية التربية جامعة المنصورة واستقرت حياته حتى ظهر هو....

(٩)

انتهت إجازته الصيفية وها هو يستعد لبداية سنة دراسية جديدة محاولًا نسيان موت هنية، محاولًا أن ينسى أنه لم يكن معها في لحظاتها الأخيرة وأنها ذهبت دون أن يلقي نظرة أخيرة عليها.

وفقه الله في عامه الأول بتقدير جيد جدًّا وكان هذا يرضيه واعتبره حافزًا جيدًا لدخول عامه الثاني بأهداف أكبر، بدأت الدراسة وترك مدحت عمله مؤقتًا ليتفرغ لدراسته وسيعود له في إجازته الصيفية القادمة بعدما توسط له أحمد عند صاحب العمل ليستثنيه، أشكال عدة وشخصيات مختلفة ولكن هو يصوب نظره عليها يراقبها في كل تحركاتها كالنسر، كل لحظة كان يراها تشتعل نيران عشقه، ويسكت عقله، كل ما كان يفكر فيه كيف أخذت هي نصيب العالم كله من الجمال لوحدها؟

ذهب مدحت لبيته في هذا اليوم وهو باله منشغل بآية، جزءه المفضل في يومه قد آتي الاستلقاء على سريره متخيلًا حياته مع آية، وقبيل الساعة الثانية عشرة في يوم التاسع والعشرين من فبراير لعام ٢٠٠٠، رنَّ جرس بابه فتحه مدحت ليجد هدية صغيرة ملفوفة بورق لميع أزرق وشريط صغير على شكل (فيونكة) نظر مدحت

يمينًا ويسارًا لم يجد أحدًا، فأخذ الهدية وأقفل بابه ودلف للداخل ليتفحصها، أخرج محتويات الهدية فوجد وردة وصورة لآية وورقة معطرة بعطر جميل مدون عليها كلمات وكانت كالآتي: " أفعلها غدًا وإن لم تفعلها سأفعلها أنا، فعلت كل شيء ما عليك سوى أخذ الخطوة. " وفي آخر الورقة مكتوب "كل عام وأنت بخير، أشتاق لك وسآتي لزيارتك قريبًا."

موقع عليها بتوقيع أنا، أنت.

جنَّ عقل مدحت فليس هناك مخلوق في العالم يعلم حبه لآية، وما معنى الكلام المكتوب هذا والأهم من هذا كله من إرسال هذه الهدية، أهناك أحد يراقبه؟ هناك من يتتبعه؟

دخل مدحت لينام بكل هذه الأسئلة الشائكة التي تدور في عقله، لأول مرة منذ فترة لم تشغل آية باله، كل الليالي السابقة كانت آية بطلتها الأولى والأخيرة، ولكن هذه الليلة مختلفة، من أرسل هذه الهدية؟! ظل مدحت يفكر ولكن لم يصل لحل واحد، فهو متأكد أنه لم يخبر أحدًا بحبه هذا، حتى توالت مفاجآت هذه الليلة، رنَّ جرس منزله مرة أخرى، لم يبالِ له مدحت، تركه يرن.. رنَّ مرة ثانية وثالثة حتى صاح بصوت عالٍ قائلًا:

– مين؟

ليرد عليه صوت أنثوي جميل مرددًا:

- أفتح.

أول ما تخلل هذا الصوت إلى أذنه قطع المسافة من غرفته للباب في ثوان معدودة، كان أسرع من سرعة الضوء، فتح مدحت الباب ليتفاجأ بامرأة بيضاء عينيها واسعتين لونهما بني غامق وشعرها أسود ناعم كالحرير وجسمها كالعود الملفوف، تتناسق تضاريسه في توزان شديد، جميلة لدرجة أن القمر حقد عليها هذه الليلة ولم يضيء لنا السماء وجلست هي مكانه، ظل مدحت محدقًا لجمالها حتى استوعب الأمر وسألها بصوت منخفض لا تسمع منه سوى التأتأة قائلًا:

- أنتِ، أنتِ مين؟

لترد عليه قائلة وهي تضحك:

- أول ما شافني عمل زيك كده، ازيك يا مدحت أنا منوت.

ليرد عليه مدحت بتعجب قائلًا:

- أهلًا بحضرتك.

- هفضل واقفة على الباب؟

- أنا آسف جدًّا، اتفضلي!

دلفت منوت للداخل وتفحصت كل ركن من أركان المنزل، ثم جلست على أريكة، سألها مدحت إذا كانت تريد أن تشرب شيئًا،

ولكن أخبرته أن يجلس ليتحدثوا..

- أنا بتهيألي سمعت اسم حضرتكِ قبل كده!

- أكيد سمعته من أبوك أو وهدان أو هنية.

- وحضرتكِ تعرفيهم منين؟

- من زمان أوي كان لينا شغل مع بعض.

- أيوة، أيوة افتكرت أنا أبويا - الله يرحمه - كان قبل ما يموت كلمني عنك وإنك اللي ساعدتي أبويا وأمي أنهم يخلفوا، بس أنا مفهمتش أنتِ ساعدتيهم في إيه هو حضرتكِ الداية اللي مولدة أمي؟

ضحكت منوت ثم ردت على مدحت قائلة:

- لا أنا مش الداية.

- أمال حضرتكِ مين؟

- هتعرف دلوقتي.

بدأت منوت تهمم بكلمات غير مفهومة وتضع يدها على صدرها ويدها الأخرى على وجهها، وحدث الشيء غير المتوقع، شيء إن عاش مدحت حياته وحياة أخرى فوق حياته لن يرى مثله..

رأى جلد منوت يبدأ بالتساقط وشعرها الأسود الناعم يتحول

لشعر خشن أبيض، وتختفي ملامحها الجميلة لتحل مكانها تجاعيد لامرأة كاهلة عاشت بما يقارب المائة عام، بدأ جسمها المتناسق بالانهيار حتى أصبح الجزء العلوي كصدرها وما تحته مملوء بالدهون، وأرجلها تشبه أعواد الغاب الرفيعة، تحولت إلى كاهلة لم تقدر حتى على رفع يدها لحك شعرها، اختفى جمالها الرهيب وعاد القمر للسماء مرة أخرى..

كل هذا ومدحت جالسًا أمامها مصدومًا ويفتح فمه، ليس قادرًا على إخراج حرف واحد حتى بدأت منوت بالتحدث قائلة بعدما تغير صوتها الأنثوي لصوت عجوز أوشكت على الموت قائلة:

- أنا عارفة إنك مستغرب دلوقتي من اللي حصل، بس أنا لازم أتكلم معاك بشكلي الحقيقي.

ليرد مدحت عليها بملامح جامدة قائلًا:

- أنتِ مين؟

- أنا منوت، أعرفك من قبل ما تتولد، أنا كنت سبب من أسباب إنك تتولد، هحكيلك حكاية وبعد كدا هو هيخليك تنسى.. هتنسى كل حاجة..

ليرد عليه مدحت:

- هو مين؟! وهنسى إيه؟

- شردت منوت نظرها فوجدت هدية مُوضعة على منضدة، أرجعت نظرها لمدحت ثم قالت:

- هو اللي جابلك الهدية دي.

- هو مين؟!

- هو شايفنا دلوقتي، هو مراقبك زي ظلك، ومعاك في كل خطوة بتخطيها في حياتك.

- أنا مش فاهم حاجة من الألغاز اللي حضرتك بتقوليها!

- كل حاجة هتعرفها بس بميعاد محدد ومكتوب.

مدحت أنا وقتي بيخلص وقعدتي هنا خطر عليك قبل عليا، اسمع الكلمتين دول وحطهم حلقة في ودنك، اكتبهم أو دوّن الكلام ده في حاجة قدامك وشايفها على طول..

- من قيمة ٢٠ سنة أبوك جالي مع وهدان علشان أتواصل مع ناس من عالم تاني وهما ميعرفوش الناس دول، كل اللي يعرفوه أن أنا بساعد الناس أنهم يخلفوا، الناس دول ليهم طرقهم الخاصة في مساعدة البشر أنهم يخلفوا، أنا اتعاملت معاهم في كذا حاجة، بجبلهم أبحاث غريبة كدا بيطلبوها شوية معادن، وكانوا بيكافئوني بدهب كتير، لحد ما في فترة الناس دي معدوش بيتوصلوا معايا، الفترة دي طولت، نسيتهم لحد ما فيه واحد منهم أتواصل معايا

وطلب مني أن أخلي أبوك يخلفك، أول مرة يطلب حد بعينه، قالي في مرساله بالحرف (نعمان السيد الطبلاوي ابن راضية) وزوجته (سنية عبد الصمد المرسي ابنة فاطمة) مش عايز اصدمك بس استعنت بحد أنت بتحبه علشان يجر رجل أبوك، اقنعته أننا هنساعده أنه يجيب العيل اللي نفسه فيه، وأنت جيت، بس اللي عرفته أن الشخص اللي اتواصل معايا ده قاعد هنا في عالمنا بيخطط لحاجة ومراقبك من ساعة ما نزلت الدنيا، أنا قولت اللي ضميري يريحيني أقوله وعارفة أنها مش هتعدي عليا بالساهل، بس خلّي بالك من نفسك وأتمنى تفتكر كل ده.

عادت منوت لهيئتها التي دخلت به في ثوانٍ معدودة بعد ما همهمت بكلمات ليست مفهومة، واضعة يدهاً على صدرها ثم وقفت أمام باب الشقة وأشارت لمدحت بيدها ثم قالت له:

- لما يجيلك متسمعش كلامه.

بمجرد أن أغلقت منوت الباب نام مدحت في سبات عميق على الأريكة الجالس عليها..

استيقظ مدحت مبكرًا كعادته، أدَّى صلاته، وجهز نفسه للنزول وكان لا يتذكر لماذا نام على الأريكة أو أي شيء، لم يتذكر سوى آية وأنه سيراها بعد قليل...

أول يوم دراسي، إقبال شديد على الجامعات من طلاب راجين العلم بداخلهم آمال وطموحات كبيرة داعين الله أن يوفقهم في سنتهم الدراسية الجديدة..

دلف مدحت لقاعة محاضراته، قاعة كبيرة بها مقاعد متراصة يجلس عليها الشباب ذكورًا وإناثًا منتظرين مُحاضرهم، جلس مدحت في أول مقعد قرب المنصة الواقف عليها الدكتور، يستمع بتمعن وتركيز لما يقوله ماسكًا في يده أوراق يدون فيها كل كلمة تخرج من فمه، أنهى مدحت محاضرته الأولى وذهب ليأخذ استراحة بسيطة ثم يعود مرة أخرى للقاعة ليحضر ثاني محاضرته، دخل مدحت لمكان الاستراحة كافتيريا صغيرة مقابلة لمبنى الكلية، جلب كرسيًّا وجلس عليه وطلب من النادل كوبًا من الشاي ممزوج بنعناع، أخرج من حقيبته رواية أولاد حارتنا ويستمتع بوقته الفارغ يخرج من دماغه عوادم يومه مراقبًا بنظره حبيبته حتى رآها تدخل عليه في تهجم وعينيها تملأها الدماء، سحبت كرسيًّا وجلست بجواره قائلة:

- ازيك يا مدحت، على فكرة أنا عارفاك كويس بس أنت متعرفنيش، عارفة إنك بتحبني وأنا كمان بحبك ومعجبة بيك من زمان أوي، بس أنت كعادتك ماكنتش واخد بالك، أنا كل لحظة كنت جنبك شايفة نظراتك ليا، بس للأسف أنت ماكنتش جنبي،

لازم لازم تكون جنبي قبل اللي هناك ده ما يخطفني منك.

رفع مدحت مرمة نظره قاطبًا حاجبيه للأعلى مندهشًا ليرى شخصًا يشبهه يقف خلف كرسي آية ينظر له ويبتسم ابتسامة شريرة، وقع مدحت من على كرسيه من شدة الخوف ثم جمع شتاته ونظر لشبيهه قائلًا:

- أنتَ، أنتَ مين؟

وقبل أن يرد عليه سمع صوت يناديه ويوبخه قائلًا:

- الطالب اللي نايم ده، أنت يا ابني قاعد في أول بنش ونايم يا بجاحتك يا أخي!

فاق مدحت من نومه غير مهندم تظرف عينيه دمعة، استغرب مدحت ثم قال بتلعثم:

- أنا آسف يا دكتور، منمتش كويس امبارح.

- لما تحب تنام نام في بيتكم يا حبيبي، اطلع برا كمل نومك!

- أنا اتأسفت يا دكتور وبكرر اعتذاري لحضرتك.

- أنا قولت اطلع برا!

ظل مدحت يبرر له ويعتذر ولا حياة لمن تنادي حتى استسلم للأمر الواقع وغادر ذاهبًا لمكان استراحته مندهشًا لما رأه منذ قليل

غير مستوعب هذا.. واقع أم حلم عابر؟!

بنفس سيناريو حلمه سحب كرسيًّا وجلس عليه، وأخبر النادل بطلبه ثم أخرج رواية أولاد حارتنا محاولًا أن ينسى ما رآه منذ قليل ليلمح بطرف عينيه آية تدخل عليه ولكن بملامحها الطبيعة، وتسحب كرسيًّا وتجلس أمامه لا يحيل بينهم سوى المنضدة ثم أردفت:

- ازيك..؟! أنا آية زميلتك في الكلية.

ظل مدحت محدقًا في وجهها للحظات ثم قال لها:

- أهلًا بيكِ، أنا مدحت.

لمحت آية بعينيها كوب الشاي على المنضدة ثم سألت مدحت:

- أنت بتحب الشاي بالنعناع ولّا جايبه علشان تهدي أعصابك؟

- لا بحبه ده مشروبي المفضل.

لترد عليه آية باسمة:

- وأنا كمان.

سرح مدحت قليلًا ثم سمع صوتًا مهموسًا يخبره في أذنه قائلًا:

- بتلّمح.

قطع صوت آية سرحانه وهي تخبر النادل بأن يجلب لها كوبًا من

الشاي ممزوجًا بالنعناع، وأكدت عليه قائلة: وصاية!

ثم نظرت للأرض وبعد لحظات صوبت نظرها لمدحت قائلة:

- آسفة على التدخل في خصوصياتك، ولكن عندي سؤال اسال ولّا هيضايقك؟

- لا متتأسفيش، اتفضلي اسألي.

- هو إيه اللي حصلك جوه ومخليك بالحالة دي؟! أنا عارفة إنك طالب مجتهد ويعز عليك أن دكتور يطردك.

دون تفكير نظر مدحت لها ثم قال:

- أنـ..

وقبل أن يكمل كلمته سكت وقال لها:

- مفيش.

شعرت آية بأنها تطفلت عليه، فشعرت بالإحراج ثم أردفت:

- أنا آسفة مرة تانية، أتمنَّى تكون بخير!

وقبل أن تغادر أوقفها مدحت قائلًا:

- أنتِ يا آية.

نظرت له باستعجاب ثم جلست مرة أخرى وقالت:

– أنا! ازاي مش فاهمة؟!

– حلمت حلم إنك قولتيلي ألحقك قبل ما حد يخطفك.

– والحد ده كان مين؟

– أنا.

(١٠)

منزل مدحت.. ليلة التاسع والعشرين من فبراير ٢٠٠٨

- لا تقلق يا صديقي نحن الآن في منزلك، أخبرتك أن نجلس ونتحدث ولكنك رفضت، كان حلِّي الوحيد أن أجبرك، أرجو أن تكون استمتعت معي بهذه النزهة القصيرة.

بملامح مندهشة وبشرة يغزوها العرق، ينظر مدحت لشبيهه وهو ليس قادرًا على النطق، كأنَّه طفل صغير لحظة ولادته، لاحظ شبيهه هذا ثم أردف:

- أنت مُعلم لغة عربية لا تفهم حديثي؟ أتريد أن أحدثك بلغتك الدارجة؟ حسنًا!

- هتعقد نتكلم؟ ولا نروح رحلة تاني؟

- أنتَ عايز مني إيه؟ أنت عفريت؟ ساحر؟ مشعوذ؟ مخاوي؟ أنت إيه؟

- يوه، اللي هنعيده هنزيده؟ قولتلك أنا، أنت.

- مش قادر استوعبك، عقلي مش مصدق كل اللي حصل ده.

- ما تعقد أفهمك كل حاجة، بدل ما أنت قاعد زي الأهبل كدا بعرقك ده، على فكرة أنت محتاج تستحمى.

رفع مدحت يده ثم شمَّ ما تحت إبطه وأردف قائلًا:

- فين ده على فكرة أنا ريحتي حلوة دا أنا حاطط ريحة ماركة استنى أدخل أجيبهالك.

قام مدحت من مجلسه، ثم جلس مرة أخرى موجهًا حديثه لشبيهه قائلًا:

- احنا في إيه ولّا إيه، أنت مين يا عم أنت؟

- طب نتفق أخليك تتطمن على آية وصاحبك السمج ده ونتكلم؟

- اتفقنا.

- طب قوم رن عليهم.

ذهب مدحت مسرعًا للهاتف، ثم أدخل رقم آية وانتظر قليلًا حتى ردت ثم أردف:

آلو، آية.

أيوة يا مدحت، فيه حاجة ولا إيه؟

نظر مدحت لشبيهه بطرف عينيه ثم قال:

- لا مفيش، حبيت اطمن عليكِ بس.

- أنا كويسة يا حبيبي متقلقش.

- طيب، هروح أنام بقى تصبحي على خير.

- وأنت من أهله.

غلق مدحت الهاتف ثم أدخل رقم أحمد فلم يرد، فأخبره شبيهه أنه نائم.

رجع مدحت لنفس الأريكة وجلس أمامه شبيهه قائلًا:

- أنت بتعرف كل ده ازاي؟

- تحب تعرف؟

- ياريت!

- طيب يا صديقي.

- أنا مش صديقك، أنا ماعرفكش أنت حاطتني في هم ومخليني قلقان على كل اللي بحبهم، طول حياتي بفقد ناس بحبهم، طول حياتي خايف أقرب من حد، خايف أتعلق بيه ويسبني، أنت معيشني في هم حاطتني في معادلة رياضية ملهاش حل.

ضحك شبيهه ضحكة خبيثة محاولًا أن يداريها قائلًا:

- قلبتها دراما يا مدحت، اعتبرني قاعد معاك على قهوة وعمالين ندردش.

دموع جارية على وجنتيه يحاول أن يداري ضعفه أمامه ولكن بلا جدوى، نظر مدحت للأرض بنظرة تُعبِّر عن يأسه ثم رفع يده داعيًا ربه أن ينجده مما وقع فيه، وفي نفس اللحظة يدور حديث في عقل شبيهه يخرج من فمه بهمس طفيف يضحك ويقول: يروق لي هذا، أشعر أنني ولدت من جديد، أشعر أنها بداية جديدة لقادم أفضل.

ولكن سرعان ما تغيرت هذه الملامح السعيدة وتغيرت نبرة انتصاره إلى نبرة حزينة بائسة، وتتبدل ملامحه من ملامح فرحة إلى ملامح عبسة، وعاد فكه إلى مكانه بعد أن كان يعتلي وجنتيه ممتدًا من أذنه اليسرى إلى اليمنى، وبدأ يهدأ من روع مدحت بعدما تقمص دور ذكي رستم في فيلم رصيف نمرة خمسة وهو يهون على فريد شوقي بعدما ماتت أمه وكان هو من قتلها.

- يا مدحت، أنت مالك كدا، أنا ضيفك جاي من مكان تاني جاي أبلغك رسالة وهمشي، وخلاص هنخلص أهو، خليك بس معايا والحزن اللي على وشك ده هيروح!

تخرج هذه الكلمات من فم شبيه مدحت وهو يضحك بسخرية، كأنه يتلذذ بالحال الذي وصل له مدحت، حالة الحيرة والذهول

الكامن في عيون مدحت تصيب شبيهه بانتعاش كلي، لا يدري لماذا هو سعيد هكذا، لماذا؟

نظر له مدحت ثم قال:

- أنا مش فاهمك، بس هسمع كلامك لإني مقدميش غيرك، مش علشان واثق فيك لا علشان مضطر، ومش فاهم بجد أنا عملتلك إيه لكل ده!

- الصراحة، أنت معملتش حاجة أنا اللي هعمل.

نظر مدحت له بتعجب، ثم حلَّ صمتٌ رهيبٌ على المكان، ثم تحدث شبيه مدحت قائلًا:

- ريتشارد بير، أو زي ما اتحكالي العميد البحري ريتشارد بير، المهم الراجل ده دخل عالمنا كان حوالي كدا في سنة ١٩٤٧ بتاريخكم وفي الحقبة الزمنية السابعة بعالمنا.

ليقاطعه مدحت قائلًا:

- عالمنا؟ عالمكم؟ أنت من كوكب تاني ولّا إيه؟ وإيه الحقبة الزمنية دي؟

ليضحك شبيهه ضحكة هزَّت أركان المنزل، ظل يضحك بما يقارب الخمس دقائق، تعجب مدحت ثم سأله:

- هتقول ولّا هتفضل تضحك كده كتير؟

- خلاص، خلاص هقول، بص أنا من كوكب الأرض بس أرض غير أرضكم، والحقبة الزمنية دي فترة من الزمن مقياسها تولي أسرة جديدة للحكم، يعني مثلًا الحقبة الزمنية السابعة دي معناها أن فيه ست أسر حكموا العالم، والفترة دي كان بيحكم فيها أسرتي، فكل حقبة بمعنى كل أسرة وعدد سنواتها تقدر بالوقت اللي حكم فيه الأسرة العالم، فهمت؟

- مش فاهم حاجة، بس كمّل.

تنهد شبيهه تنهيدة ثم تنحنح قائلًا:

- الراجل ده دخل عالمنا، وفيه كذا رواية بتقول دخل ازاي وفيه اللي هو حكاها، بس هقولك روايتين كانوا قريبين من كلامه نسبيًا..

- قول يا عم، ضربوا الأعور على عينه.

أول رواية لما كانت القبيلة السابعة من جنس آدم - عليه السلام - (اللي هي قبيلتنا) محتاج بعض المؤن من عالمكم، المؤن دي كانت شوية معادن غير متوفرة عندنا، كانوا محتاجينها لاستكمال مشروع خاص بفتح بوابة دايمة بتتفتح بتحكم من كبير القبيلة، تسهل المرور بين عالمين اللي هما عالمنا وعالمكم وعالم تالت، فاضطروا لفتح بوابة مؤقتة ببعض من أبحاث عُلمائنا اللي استمرت لسنين، كانت البوابة مدتها خمس أيام وتقفل، المهم فتحوها علشان

نستخرج بعض المعادن غير المتوفرة عندنا، والمتوفرة عندكم بكثرة زي الحديد، المنجنيز، الألومنيوم والنحاس، الرحلة دي عرفتنا حاجات كتير أنتوا بتتخطوا ليها وأبحاث كتير لعلماء زي اينشاتين، أبحاث عن فيزيا الكم والنظرية النسبية والثقوب السودا، ولقينا نظريات عن وجود عوالم موزاية ليكم بس للأسف مجرد نظريات وكمان اكتشفتوها متأخر، متأخر أوي، بعد ما حارس البوابة بيفتح البوابة لازم يقفلها بعد مرور الفوج ويفتحها تاني بعد عشر أيام في نفس الميعاد علشان الفوج يعود لأرض الوطن تاني، الحارس بعد ما الفوج دخل من البوابة نسي يقفلها بعد ما استعجلته عاهرة علشان يروح يقضي معاها ليلة، كان راجل صاحب مزاج، أثناء ما البوابة دي مفتوحة لاحظ عالم إن فيه ترددات على أجهزة الردار جاية من الجزء الشمالي من المدينة، وده مكان فتح البوابة راح جري على السيد أمهرت حاكم مدينة اسجاردا، بعت اتنين من حُراسه، نسيت أقولك في عالمنا الناس كلهم مش بنفس هيئتي كدا..

ليتحدث مدحت متعجبًا:

– أومال كانوا عمالين ازاي، فضائيين بعين كبيرة ودماغ صغيرة؟

في عالم شبيه مدحت ينقسم البشر إلى ثلاث فئات على شكل هرمي، الفئة الأولى أناس بنفس هيئة البشر العادية، ويكونون هم الحُكام والمستشارون والكهنة، ولا تسمح قوانين عالمهم بتولِّي أي

فئة من الفئتين الأخريين، تقاليد الحكم ولا دخول للجنة الاستشارة ولا معبد الكاهن، إلا إذا حدثت طفرة جنية في إحدى الفئتين، في ذلك الوقت تقام انتخابات ويختار الشعب حكامه ومستشاريه، تقع هذه الفئة على رأس الهرم الطبقي يتمتعون بكافة الحقوق والمميزات أكثر من أي فئة، الفئة الثانية هي فئة الحُراس، يختلف أشكال الناس وأجسامهم في هذه الفئة حيث كان يتمتعون بطول فارع وبنية ضخمة وجسم مليء بالعضلات وشعرهم أحمر مجعد وملامحهم بارزة، أعينهم واسعة بحدقة زرقاء، أنفهم عريض تشبه أنوف الزنوج ولكن ببشرة بيضاء، طفرتهم الجنية حتمت عليهم أن يكونوا حراس للحاكم والمدينة، ولا يأخذون أي مناصب عُليا إلا إذا أصبحوا أناسًا عاديين، يقعون في منصف الهرم الطبقي يكون لهم بعض المميزات عن عامة الشعب.

الفئة الثالثة وهي عامة الشعب، أشكالهم مزيج بين الفئتين الأولى والثانية، فطولهم طبيعي وشعرهم تختلف ألوانه ما بين الأحمر، الأسود، البني والأصفر، ملامهم بارزة وأنفهم عريض كأنوف الزنوج ولكن بشرتهم بيضاء، أجسامهم طبيعة منهم السمين والنحيل، يقعون في قاع الهرم الطبقي لا يتمتعون سوى بحقوقهم كشعب، ولا يسمح لهم أن يتولُّوا مناصب عُليا إلا إذا حدثت طفرة جنية تؤهلهم لدخول أي فئة من الفئتين السابقتين.

- المهم يا عم مدحت لما الحراس وصلوا لمكان البوابة سمعوا صوت أشبه بصوت طيارة حربية ترجع لعصر القبيلة الرابعة في الحقبة الزمنية الإيه؟

ليرد عليه مدحت في تسرع قائلًا:

- الرابعة.

ليثني عليه شبيهه قائلًا له:

- الله ينور عليك، أنت كدا معايا على الخط.

بصوا لفوق شافوا طيارة بتطير في السما بيسوقها شخص يشبه أشكال الناس في الفئة الأولى، لحد ما الطيارة دي هبطت في أرض الوطن، فالحُراس خدوا ريتشارد اللي كان سايق للسيد أمهرت يمكن يتعرف عليه ولا حاجة، ودي كانت الرواية الأولى.

تغيرت ملامح وجه مدحت من ملامح الحزن إلى ملامح تملأها الحيرة والدهشة، تغيرت تعابير وجهه وحركاته الجسدية التي تدل على ملله الشديد، إلى وجه وجسد يدل أن صاحبه يستمتع بما يقال، وكأن هنية تقص عليه بعض من قصصها الشيقة في صغره ليصيح بصوت لا إرادي قائلًا:

- كمل، كمل..!

ابتسم شبيه مدحت ابتسامة خفية، شعر أنه يروضه ثم قال

لمدحت مبتسمًا:

- حاضر.

- الرواية التانية بقا يا سيدي كان بيتجول في المدينة مجموعة من الحُراس لمراجعة بعض الأمور الأمنية، وعلشان يطمنوا العامة أن الأمن مستتب وكل شيء على ما يرام، فجأة مرة واحدة وهما بيتفحصوا مكان البوابة المؤقتة.. لقوا من العدم دايرة بتظهر بذبذبات غريبة بتزغزغ في رجلهم، وخرج راجل من الدايرة دي شبه الناس اللي من الطبقة الأولى، شاف قدامه حرفيًا ناس غريبة فصاح بلغته الإنجليزية قائلًا:

- أين أنا؟ من أنتم؟

ليرد عليه أحد من الحراس قائلًا:

- أهلًا بك سيدي، السيد المبجل ينتظرك من فضلك تحرك معنا.

- الحكاية المدرجة هنا أن السيد المبجل أمهرت جاله تعليمات من السيد نولن بأمر من ملك العالم مِنوس أنه يبعت مجموعة من عالمنا لعالمكم عن طريق البوابة المؤقتة، علشان يقدر أي بشري من عالمكم العبور منها ويدخل عالمنا؛ لأن ملك العالم كان يريد بشريًا من العالم الرابع اللي هو عالمكم علشان يخبره بشيء في غاية الأهمية زي ما تقول كدا مشروع مشترك كله يطلع كسبان منه، وصادف

الحظ أن ريتشارد هو اللي دخل من البوابة.

اندمج مدحت في الحديث وأدلى برأيه قائلًا:

- الرواية الأولى أنا مصدقها أكتر الصراحـ

وقبل أن يكمل حديثه قاطعه الشبيه قائلًا:

- كل اللي فات ده روايات مش متأكد من صحتها إنما اللي جاي ده هو الصح...

- دخل شخص غريب من بوابتنا المؤقتة يا سيدي!

- ما هذا العبث! أرسل بعض من الحراس ليروا من هذا الشخص، وأرسل لي العالم والحارس المسؤولان عن البوابة.

كانت هذه المحادثة القصيرة بين أمهرت حاكم مدينة اسجاردا، المدينة المفضلة لِمنوس ملك العالم الثالث (عالم الشبيه) والحاكم المدلل لِمنوس وبين حارس من حارسه، كان أمهرت داكن البشرة، وعينيه ضيقة ووجهه كالمربع، يمتلك لحية صغيرة يتفرق الشعر على جوانب وجهه، ضعيف البنية نحيف، يرتدي جلبابًا ضيقًا من الصدر ويتسع عند الأقدام، وتاج صغير ذهبي بنجمة واحدة، يقف مهرولًا قلقا لما يحدث شخص دخيل وجده حارس؟ ما هذه الفوضى!

طرق حارس القاعة المتواجد بها أمهرت بابها ليبلغ سيده بأن

الحارس والعالِم يقفا بالخارج، أمره سيده بأن يُدخل الحارس أولًا..

دلف الحارس للقاعة، عيناه تدور في كافة أرجائها مستمتعًا برسوماتها المُزخرفة في أشكال كواكبٍ، وسقفها المرسوم عليه سماء مظلمة في وسطها نجوم، يرى الفن المُنعم بأم عينيه يتمنى أن يكون مثل سيده في يومٍ ما..

منضدة متوسطة يجلس عليها أمهرت محدثًا الحارس قائلًا:

– أجلس يا كوستديا، أليس هذا اسمك؟

بنبرة خوف رد عليه كوستديا قائلًا:

– نعم يا سيدي، هذا اسمي.

– تشرب شيئًا؟

– تُشكر يا سيدي، أفاض الله عليك من أوسع أبواب رزقه.

قام السيد أمهرت من مجلسه فجأة ثم ضرب بيده على المكتب قائلًا بانفعال:

– اعطِ لي سببًا واحدًا يجعلك تتغافل عن حراسة البوابة!

رد عليه الحارس بتلعثم:

– أ..أ.. أنا كُنت..

ليقاطعه أمهرت بنبرة حادة:

- أنت لم تكن في أي مكان ملعون، أين أنت كنت يا كوستديا؟

- كُنت في بيت العاهرات يا سيدي.

هدأ أمهرت ثم جلس على كرسيه مرة أخرى وقال:

- أتدري ما فعلت، من الممكن أن الدخيل المتواجد عند البوابة الآن جاسوسًا مُرسل من عالم آخر للاطلاع على أحوال عالمنا، أتدري كم عالم آخر يريد أن ينفرد بقمة الكون، أنت مجزٍ ويحكم عليك بفصلك نهائيًا، انصرف عن وجهي.

خرج الحارس من القاعة ودخل بعده العالم دون سلام واجه له أمهرت حديثه قائلًا:

- أريدك أن تخبرني بخطورة الموقف.

- التحية عليك سيدي، أود أن أخبركم بعدم القلق نهائيًا، البشري المتواجد عند البوابة من العالم الرابع أقل العوالم معرفة بالأكوان الموازية، ألقيت نظرة عليه صراحةً أشك أنه يحمل أي ضغينة أو أنه مُرسل من مكان ما، حتى الآن لا يعرف أحد كيف دخل لعالمنا ولكن - إن شاء الله - سنعلم بعد تحريات سيادتكم.

انصرف العالم بعد أن طمأن أمهرت، أمر أمهرت جنوده أن يأتوا بالبشري..

دخل ريتشارد للقاعة مذهولًا بما يراه، يكمن بداخله خوف

شديد، ولكن طبيعته العسكرية تجبره على إخفاء ذلك، بمجرد أن اقترب من أمهرت بدأ يلقي عليه التحية قائلًا:

- من حاكم المدينة الذي لا يُغفل له عين ولا يقدر على هزيمته شيء.. راعى السكان وحافظ شرفهم، حام حمى عرين حاكم الدولة سيدي العظيم، نولن وجمعينا تحت وطَأة قدم ملك وسيد عالمنا مِنوس أرمي عليك سلامي وآمرك بتعريف شخصك المبهم لنا.

لم يرَ ريتشارد في حياته منظرًا كهذا، أناس غريبة حديث جارِ مليء بالألغاز، ملك ومستشارون جالسين ينظرون له كأنه مسخ، يرتدون عباءات فضفاضة مرسوم عليها جلود شبيهة بجلود البشر وعلى رأسهم خوذة تأخذ شكلها من الكرة الأرضية! من هؤلاء وماذا يفعلون؟!

استسلم ريتشارد للأمر الواقع ورد على أمهرت بعدما أدرك أنه ليس على بقعة أرض بشرية، إنما هو في مكان لم يعلم حقيقته بعد..

- يقف أمامكم العميد البحري ريتشارد بير من أعظم قادة القوات الأمريكية البحرية وضابط في البحرية الأمريكية ومهندس طيران."

- ما الذي أتي بك إلى هنا يا سيد ريتشارد؟ تخرج هذه الكلمات من فم "أمهرت"..

بدأ ريتشارد في الشرح:

نظمت الحكومة الأمريكية رحلات استكشافية للقطب الجنوبي والشمالي ونطلق عليهما "مركز الأرض" حلقت بالطائرة فوق القطب الشمالي لتنفيذ المهمة التي كُلفت به، رأيت واديًا أخضرًا يملأ أراضيه العشب المزهر، وعلى جانبيه سلسة من الجبال الشاهقة، لاحظت فجوة غريبة بين هذه الجبال هبطت بضعة أميال لأرى ما بداخل هذه الفجوة لعل وعسى استجد شيئًا مفيدًا وتكون مهمتي الاستكشافية أتت ثمارها، ربما أجد أشياء قيمة يستنفع بها مجال العلم والإنسانية عامةً ويُكتب اسمي بأحرف من نور في التاريخ..

هبطت بطائرتي قليلًا عند مدخل الفجوة، وهنا حدثت المشكلة.. بدأت الفجوة بسحبي لها بشيء أشبه بسحب مغناطيس قطعة من الحديد، لم أرَ شيئًا بداخلها، كان الظلام يعم وفقدت القدرة على التحكم بالطائرة، استمر هذا الوضع لما يقارب النصف ساعة..

دخلت لهذا المكان سماء صافية عُشب أخضر في كل مكان بحيرات وشلالات تنفر الماء في منظر طبيعي ساحر خلاب، استعدت التحكم في طائرتي مرة أخرى وحلقت في سمائكم حتى نفذ وقودي وعثر عليَّ بعضًا من الوحوش يشبهون البشر في تكوينهم، ولكن هيئتهم لا توحي بذلك وجلبوني لك وها أنا أقف أمامك.. وحان وقت سؤالي.. من أنتم؟

لم يكن الأمر غريبًا بالنسبة للسيد "أمهرت" ومستشاريه، فهُم يؤمنون بوجود عوالم أخرى ويعرفون عالمهم أكثر منهم..

بسذاجة بلهاء لطفل لم ينهِ سنته الأولى في تعاليم الروضة ((١kj رد عليه مدحت ناسيًا كل ما يجري من حوله ومدى صعوبة الوضع الماكث فيه مندمجًا لحديث شبيهه قائلًا:

- ويا ترى عملوا معاه إيه؟

ابتسم الشبيه ابتسامة صغيرة ثم أكمل قائلًا:

- بعد ما طرح ريتشارد سؤاله، رد عليه سيدي "أمهرت" بأن ينتظر قليل للبت في أمر مسألته العويصة هذه، وأخذ المشاورة مع مستشاريه قبل أن يعرضها على أبي السيد نولن وجدي الأكبر ملك العالم الأوحد "منِوس".

قاطع مدحت نسخته قائلًا:

- لا استنى علشان أنا توهت منك، هو حاكم الدولة منال ده يبقى أبوك؟

أغضب هذا السؤال الشبيه بانت على ملامحه العصبية حتى أظهرها على أرض الواقع، بدأت الكهرباء بالانقطاع ثم المجيء في ظرف ثوانٍ معدودة، وبدأت الأنوار ترتعش ثم ثبتت بعدها تكلم الشبيه قائلًا:

– أغلق فمك اللعين هذا، وتريث ولا تنطق بحرف قبل أن تعرف معناه وتتأكد من صحته، أبي اسمه نولن.

تسلل الخوف لمدحت مرة أخرى، وبدأ يهدأ شبيهه قائلًا:

– إهدا يا عم أنت محسسني إني عايش معاكم مش كفاية الهم اللي أنت حاطتني فيه ده.

قول إيه هو سؤالك، انجز!

نظر له مدحت وهو يضحك ضحكة بلهاء يدس فيها كم من الغيظ تحمل معانٍ كثيرة أهمها..

– دوق شوية من اللي بتدوقهولي، هو نولن أبوك؟

– أيوة، أنا من العيلة اللي كانت حاكمة العالم

– معني كده إن مِنوس جدك؟

– أيوة.

– طب كمل يا عم حكاية الجدع ريتشارد ده.

قبل أن يرد أمهرت على سؤال ريتشارد، جاء صوت من خارج القاعة، صوت حُراس تهلهل وتضرب تعظيماً بالأسلحة، صوت أقدام تقترب تارة فتارة من باب القاعة الدائر فيها الحديث، فجأة يُفتح الباب ليدخل رجل طوله متوسط، يملك قوامًا جيدًا لا هو

بالنحيل ولا هو بالسمين، أملس الوجه أبيض البشرة، أنفه صغيرة ملامحه طفولية ولكنٍ تراه تهاب منه، انحنى أمهرت على ركبتيه محييًا السيد نولن قائلًا:

- بُركت وبوركت المدينة بقدومك يا سيد نولن.

أومأ نولنٍ برأسه لأمهرت ورد له تحيته ثم وجه حديثه مباشرة لريتشارد قائلا:

- لا تقلق يا سيد ريتشارد كل الأسئلة الشائكة التي تدور في عقلك ستعرف جوابها، ولكن لابد من أن ترتاح قليلًا فأنت بالتأكيد متعب من هول الموقف ومن حدته..

ثم أمر جنوده بمصاحبة ريتشارد لغرفة ضيوف المدينة ليمكث فيها حتى يتم البت في أمره..

ثم أمر السيد أمهرت بتجهيز غرفة الاجتماعات وتجهيز قصر السيد "منِوس" لأنه قادم للمدينة بعد ساعات..

أمر السيد "أمهرت" جنوده بتنفيذ ما قاله السيد "نولن" ثم طرح بعض الأسئلة عليه..

هل وصل لكَ الخبر سريعًا هكذا؟

- صراحةً لم يصل لي مباشرة، فقد علم به أبي فهو لا يخفى عنه شيئًا، ثم ببعض من قدراته أوصل لي الخبر وأخبرني بأنه قادم لأمر

مهم بخصوص هذا البشري من العالم الرابع..

- هل تعرف ما هو هذا الأمر المهم؟

- الضربة الكبرى..

(١١)

أرضٌ سحرية، مساحات خضراء وشلالات تنفر المياه في منظر تلوذ العين رويته، أجراس تدق وطائرات في السماء تطير وتضرب نيران ترحيبه، تهتز الأرض هزًا تشريفًا وتعظيما بقدوم الملك والسيد الأعظم مِنوس.

تجمع أهل مدينة اسجاردا وحراسها وحكامها ومستشاريها وكل من في المدينة لاستقبال سيدهم وحاميهم، يتجمعون ليروا سيدهم وحاميهم، فُتح باب المدينة دون أن يمسه أحد، فُتح تدريجيًا حتى انفتح لآخره ليتفاجأ الواقفون بعدم وجود السيد مِنوس، بدأ القلق يسير في وجدانهم وكثير من الأسئلة تلوح في عقولهم، فبعضهم يقول أكيد سيظهر بطريقة جديدة عن كل مرة، ويقول البعض الآخر أنه لن يأتي، حتى قرر مِنوس أن يقطع الشك باليقين وظهر، ظهر هابطًا من السماء مرة واحدة من العدم ثم نظر لشعبه وضحك وحياهم، عندما رأوه انحنت رؤساؤهم تحية وتقديرًا واحترامًا لسيدهم، أومأ برأسه هو الآخر لهم ثم خطت رجله درج المنصة، كان مِنوس رجل في عقده السادس ولكن لا يظهر عليه العجز، ويدل على ذلك تقاسيم وجهه السلاسة الناعمة وشعره

الأسود الطويل الناعم، ولحيته الطويلة المهندمة ورداه الذهبي بجلبابه وتاجه المطلي بالألماس والذهب حاملًا سبع نجوم تدل أنه كبير العائلة السابعة الحاكمة لهذا العالم، صفق الحاضرون مرة أخرى ثم بدأ مِنوس في إلقاء خطابه قائلًا:

- سكان المدينة وشعبها، جنودها وحارسها، مستشاريها وحكامها، السيد نولن والسيد أمهرت، أتمنى لكم السلامة جميعًا، لقد خطت قدمي اليوم هذه المدينة الجميلة الساحرة فعالمنا مليء بالمدن الجميلة، لكن اسجاردا أجملهم وهي أحب إلى قلبي من أي مدينة أخرى، شعبي العزيز أطل عليكم اليوم لأناقش أمرًا هامًا.. فأنتم تعلمون جملتي الشهيرة منٍ حق شعبي معرفة ما يدور من أمور هامة تخص عالمهم، فأنتم الحكام وليس نحن، هذا الأمر الهام سيغير مستقبل أولادكم وأحفادكم للأفضل، سيجعل عالمنا ذات قوى عظمى، بل سيكن هو الأعظم في الكون كله، فأدعو الله أن يوفقنا في خططنا وأن يسدد رميتنا، حفظكم الله من كل شر وسوء.

صفق الحاضرون بحرارة بعد انتهاء خطاب سيدهم، حياهم السيد مِنوس ثم ذهب لقصره ليرتاح قليلًا قبل بدأ الاجتماع.

- مش عايز تطمن على أحمد؟

طرح الشبيه هذا السؤال على مدحت، صاح مدحت في وجهه ثم قال له:

- أنت يا جدع أنت جنس ملتك إيه؟

رد عليه الشبيه وهو يبتسم ابتسامة لطيفة تعطي وجهه انطباعًا سمجًا قائلًا:

- مالك يا أبو المداحت متعصب ليه؟

- يعني أنت فصيلتك إيه؟ أنت بهيمة؟ كان طموحك تطلع بهيمة بس مجموعك مجابش؟ يعني مشوقني وتحكيلي كل ده وتيجي عند المهم وتقولي أحمد؟ يا أخي يلعن.... أحمد.

ضحك الشبيه ضحكة مليئة بالخبس ثم رد عليه قائلًا:

- خلاص يا عم أهدا هاكمل ومش هقاطعك تاني.

- كمل يا عم الله يرضى عليك.

شعر الشبيه أنه بدأ يكتسب ثقة مدحت ويروضه لصالحه، بدأ يفصله عن عالمه، بدأ ينسيه مصائبه، مصائبه الذي هو من صنعها له، أراد الشبيه أن يراه دائما هكذا تائهًا.

جهز الخدم والحراس قاعة الاجتماعات، وطلب مِنوس من السيد نولن أن يبلغ أمهرت أن الاجتماع سيكون بينهم فقط، دون المستشارين وأن تكون القاعة خالية حتى الحراس ينتظرون بالخارج.

دلف مِنوس للقاعة ليجد نولن وأمهرت في انتظاره، وقفوا

احترامًا له ثم أمرهم بالجلوس وبدأ بالتحدث قائلًا:

- أنصتوا لي جيدًا.. هذه الفرصة لن تتكرر ولابد من استغلالها أفضل استغلال.

- ولكن يا سيدي أبلغني السيد نولن أن هذا الاجتماع الهام بخصوص الضربة الكبرى، وأن هذا البشري من العالم الرابع الموجود بحوزتنا له علاقة بها أهذا صحيح؟

- صحيح.

- ولكنني لا أفهم ما علاقة هذا البشري بالضربة الكبرى؟

- ضحك السيد مِنوس ضحكة هزت أرجاء القاعة مستهزئًا ثم حدث أمهرت قائلًا:

- نحن نبحث عن ماذا نضرب ضربتنا الكبرى ونكمل مشروعنا يا أمهرت؟

- نبحث عن الأبحاث والنظريات اللازمة التي أجرها علماء من بعض العوالم المختلفة، ومن خلال أبحاثنا التي استمرت لسنوات تبين لنا أن العالم الرابع علمائه تخطوا خطوات لا بأس بها في أبحاثهم.

ليتدخل نولن في الحديث قائلًا:

- ومن أين جاء هذا البشري يا أمهرت؟

- من العالم الرابع يا سيدي.

ليرد عليه منوس قائلًا:

- أفهمت الآن يا أذكى حكام المدن؟

أومأ أمهرت برأسه ثم أردف:

- ولكن كيف سيساعدنا ريتشارد في هذا الأمر؟

ليرد عليه مِنوس قائلًا:

لكل باب مفتاحه، ومفتاح البشر في هذا العالم الخوف والطمع، لكن هذا البشري الذي بحوزتنا سيكون من الصعب إقناعه وترويضه وجعله ينساق لما نريد، أولًا نظرًا لخلفيته العسكرية فهو أكيد مُدرب على مثل هذه المواقف، ثانيًا أن الأسرار الذي سيعرفها ستمثل علينا تهديدًا إذا تم الإفصاح عنها؛ لذلك فقد جمعتكم اليوم لنرى هل من المناسب أن نقوم بهذه المخاطرة؟

بدأ يحلل السيد نولن الموقف قائلًا:

- يا سيدي فكر في المستقبل، فكر في أولاد عالمنا، ستزهر عيشتهم إذا ضربنا هذه الضربة، سيكون أمامهم كل المقومات ليعيشوا حياتهم الكريمة مطمئنين على مستقبلهم ومستقبل الأجيال القادمة، ماذا سيكتب في التاريخ عنا إذا عُلم أننا فوتنا هذه الفرصة خوفًا من المخاطرة؟! كيف سننظر في أوجه أحفادنا؟ ماذا سنقول

لهم؟ كانت أمامنا الفرصة لضمان مستقبلكم ولكن لم نستغلها خوفًا من المخاطرة؟ ليس أمامنا خيارًا إما نستغلها أو نستغلها.

نظر مِنوس إلى أمهرت نظرة تحدثوا فيها بالأعين، أخذ رأيه في هذا الكلام المنطقي من نولن، أومأ أمهرت برأسه إيجابًا ليخبر السيد مِنوس بموافقته على كلام نولن.

– معنى هذا أنكما موافقان على هذه المخاطرة، حسنًا اجلبوا لي هذا البشري المدعى ريتشارد يبدو أن حديثنا سيطول.

ليقطع مدحت حديث الشبيه قائلًا:

– هما عايزين منه إيه يا...؟

بضحكة سخيفة سأله مدحت:

– هو أنت اسمك إيه صحيح مدحت برده؟

– هم عايزين منه إيه هاقولك بعدين، بعد ما تتطمن على أحمد صاحبك لأنك بصراحة عاجبتني أوي، وطول ما أنت بتسمع كلامي ومعايا هاكون معاك دايمًا، وهعملك كل اللي أنت عايزه، أما بالنسبة لاسمي فأنا مسميش مدحت لسه شوية، أنا أكترا..

أكترامِنوس..

– مع أن أنا مش فاهم حاجة بس عاشت الأسامي يا عم أكترا.

يرن هاتف المنزل ليقطع هذا الحديث الدائر، سار مدحت باتجاهه وأخبره أكترا أن هذا هو أحمد، حذره من أن يدلي له بكلمة واحدة يطمئن عليه ويغلق الهاتف لإكمال حديثهما.

رفع مدحت سماعة الهاتف مرددًا:

- ألو، ازيك يا أبو حميد.

- ازيك يا مدحت يا حبيب أخوك، أنت عرفت أن أنا ازاي؟

ارتبك مدحت ثم قال وهو يتأتأ:

- شوفت، شوفت رقمك وعرفت.

- آه، عامل إيه يا مدحت وإيه اخبارك؟

نظر مدحت لأكترا ثم رد على أحمد بتنهيدة قائلًا:

- أنا كويس، كويس أنت عامل إيه؟

- أنا الحمد لله، فيه حاجة مهمة كدا عايز أسألك عليها!

- اتفضل.

- أنت بعت أرض وهدان؟

- لا بتقول كدا ليه؟

- أصل آية جاتلي المطعم النهاردة وكانت هيئتها غريبة، شكلها

مجهد وتعبان وتحس أنها شخص تاني، واحدة تانية أنا وأنت منعرفهاش.

قاطعه مدحت يسأله والقلق يكمن في داخله ويظهر في حديثه قائلًا:

- واحدة تانية ازاي؟

- ماعرفش والله واحدة تانية حسيت كدا وهي بتكلمني أنها مش آية مش الشخص اللي أنت جبته المطعم، ملامحها باهتة، مطفية، بتتكلم بسرعة إيديها بترتعش، كلامها مش موزون تحسها خايفة من حاجة، لقيتها داخلة عليا في إيدها ورق بسألها إيه الورق ده قالتلي ده مدحت باع ليا أرض وهدان وبيته بعقود بيع وشرا، وطالبة نروح أنا وهي بكره الشهر العقاري نوثقهم، أنا استغربت أنت بتحب وتعز الأرض والبيت دول وحتى في أشد أوقات ضايقتك واحتياجك مافكرتش ولا عمرك هتفكر تبيعهم..

- طب أقفل دلوقتي وأنا هاشوف الموضوع ده.

انفعل مدحت على أكترا ثم صاح فيه بشدة قائلًا:

- أنت كل ده عارفه ومدبر له، علشان كده طلبت مني أكلم أحمد لا وكنت مُصر أني أكلمه صح؟

ضحك أكترا ثم رد عليه في برود فاتر قائلًا:

- صح.

جنَّ جنون مدحت وأصبح رأسه يخرج نارًا، ركض مسرعًا على المطبخ باحث عن سكين، وجده وركض ناحية أكترا ثم انقض عليه ليطعنه، ولكن قبل أن يرفع يده ضربه أكترا ضربة قوية على رأسه أفقدته الوعي، بعد هذه الضربة همد جسد مدحت على الأرض، وكان آخر ما رأه قبل أن يدخل في مرحلة اللاوعي وجه أترا يبتسم له.

برودة الليالي الشتوية وصقعيها، أرض زراعية ومحول كهرباء خلفه ترعة، استيقظ مدحت مقيدًا على كرسي بأحبال متينة وبجواره آية وأحمد بنفس وضعه فاقدي الوعي ومقيدي مثل مدحت تمامًا، نظر مدحت لأكترا بنصف عين وجده يقف محدقًا للترعة، ثم عدل مرمى نظره ناحية مدحت وبدأ يقترب منه بخطوات بطيئة، عندما اقترب منه نظر في عينيه قائلًا:

- تريد أن تعرف كل شيء؟

- سأخبرك.

(١٢)

في عام ١٩٧٩، في محل عم رأفت الحلاق، يجلس الحاج نعمان وصديقه الشيخ وهدان منتظرين دورهما لتهذيب أذقانهم وتقصير شعرهم؛ لأن رئيس الجمهورية سيزور قريتهم يوم غد وطلب منهم عمدة البلدة أن يظهروا بمظهر لائق.

جلس وهدان بجانب صديقه متفاجأً بوجوده قائلًا:

- الله، أنت كمان جاي تتزين يا نعمان؟

ليرد عليه الحاج نعمان نافرًا:

- العمدة واجع دماغي والله يا وهدان، بيقولك الريس جاي بكره ولازم يكون شكلنا يشرف، أصل يعني رأفت المزين هو اللي هيخلي شكلنا يشرف، كلام فاضي والله من بعد ما كسبنا في ٧٣، ولحد يومنا ده والمستشارين بتوع الرياسة كل شوية يزنوا على الريس ينزل يزور قرية قال إيه علشان يوطد علاقته بالشعب، ويكون قريب منهم، أنا لو مكان السادات كنت زهقت.

ليجاريه وهدان في الكلام قائلًا:

- كلها حاجات روتينية يا نعمان، حاجات عشان بتوع

التليفزيون يجوا يصوروا وبتوع الجرايد يجوا يكتبوا ويقولوا بالخط العريض:

"لقد زأر الرئيس قرية كذا، وأبدى سعادته الشديدة مطمئنًا على شعبه."

ويصوره وهو قاعد مع أي عيلة من البلد يأكل الفطير المشتلت وهو بيضحك وهما بيضحكوا والدنيا تبقي جميلة، سيبك يا راجل المهم أنت عملت إيه في الموضوع بتاعك؟

رد عليه نعمان وهو يأسًا:

- والله يا وهدان مفيش جديد، خدت الولية وروحنا حتت ياما في مصر والمنصورة، روحنا لكذا حكيمة وكلهم نفس الكلام المحفوظ مفيش مانع للخلفة أنتوا الاتنين كويسين، ويعطونا روشتة ويقولوا أمشوا على العلاج ده وأعملوا شوية التحاليل دي وتعالوا بعد أسبوع نكشف تاني لحد ما فقدت الأمل وكل حاجة بقت سواد قدامي.

- أنت بس لو تسمع كلامي يا نعمان وتيجي نروح للست اللي بيقولوا عيلها واصلة دي وليها بركات وكرامات وساعدت ناس كتير أنهم يخلفوا، إنما نقول إيه دماغك جذمة قديمة.

- أنا مش هاجيب عيال بالطريقة دي يا وهدان، ربك رزقه

واسع وهايجبر بخاطري في يوم، ثم كمان سنية مش هتوافق أنا عارفها وعارف دماغها ماتحبش شغل الدجل والشعوذة ده أبدًا، كمان يا راجل أنت مش شيخ وعارف أن الحاجات دي حرام.

- يا نعمان المفروض نسعى، مينفعش نعقد كده ونقول يا رب يبقى معايا فلوس لازم أسعى وأجيب الفلوس، بس أنت دماغك محجرة تعالى نجرب نفعت أهو يبقى خير وبركة منفعتش أهي تجربة ويبقى مخسرتش حاجة ومشيت في كل الطرق.

- هو أنا يبقى عملت اللي عليا يا راجل يا مخبول بالطرق اللي ماترضيش ربنا دي؟

- وإيه اللي مايرضيش ربنا في شيء فيه مساعدة ليك يا نعمان؟ اسمع كلامي بس وتعالى نروح ليها يمكن يكون عندها القبول وتبقى عون ليك بعد ربنا، طب أقولك على حاجة فكر، فكر براحتك ورد عليا.

زينّ الحاج نفسه وبدا كعريس ليلة عُرسه، كان يفكر في كلام الشيخ وهدان، حين كان يزيل شعره كان يفكر جديًا في إزالة كلام الشيخ وهدان من رأسه.. يجعله يتناثر ويسقط من خلايا عقله مثلما يتناثر شعره على أرض المحل، وتارة أخرى يفكر أن يوافق على كلامه، لكنه لم يعتد على أخذ قرارًا بمفرده، فلا بد أن يستشير شريكة حياته سنية التي مشت معه في كل دروبه ويدين لها بالكثير،

يريد أن يجبر بخاطرها بطفل يكون من صلبهما، صراحة هو راض بقضاء الله وقدره وحكمته، لكن سنية تريد طفلًا وتبكي الليلَ بأكمله ولا تنام للحظة كل ما يشغل تفكيرها هذا الأمر.

ذهب نعمان لبيته ليعرض الأمر على سنية، فإذا وافقت سيسمع كلام وهدان دون تفكير وإن لم توافق سينسى هذا الموضوع تمامًا ويبدأ يسلم لأمر الله وحكمته وينتظر حتى يرزقه الله بطفل حينما يحين الوقت، حتى لو لم يرزقه فهو راضٍ فالله أعلى وأعلم وله حكمته في ذلك.

طرق الحاج نعمان باب منزله لترد عليه سنية قائلة:

- مين اللي بيخبط؟

ليرد عليه نعمان قائلًا:

- يا ولية افتحي مين هيخبط عليكِ غيري.

- طيب يا نعمان ثانية واحدة.

فتحت سنية الباب لتجد ملامح نعمان متغيرة، ملامح تملأ جوانبها الحيرة، دخل نعمان وأمسك بيدها وسحبها للداخل وأجلسها بجانبه ثم أردف:

- شوفي بقا أنا جايلك في موضوع مهم مايستحملش التأخير، فاسمعيني كويس وعايز أعرف رأيك.

- خير يا حاج قلقتني فيه إيه؟

- وهدان كان قاعد معايا وقالي على حاجة كدا تخص موضوع الخلفة.

ردت عليه سنية وهي تمسك يده بشدة قائلة:

- قالك إيه يا حاج طمني فيه حكيمة كويسة نروحلها هتخليني أجيب العيل اللي نفسي فيه؟

- مش ده المقصود.

- أمال إيه؟

- اهدي بس وصلي على النبي وهافهمك.

- عليه أفضل الصلاة والسلام.. ها قول!

تنحنح نعمان ثم قال:

- وأنا عند رأفت المزين وهدان كلمني عن ست واصلة وليها كرامات زي ما بيقولوا وساعدت ناس كتير أوي أنهم يخلفوا، وهدان عرض عليَّ الأمر وقالي نروحلها بس أنا مش داخل دماغي الكلام ده وقولت أخد رأي سنية مع أني متأكد إنك مش هتوفقي بس عايز أسمع رأيك.

ردت عليه دون تفكير قائلة:

- موافقة.

ليرد عليها نعمان متعجبًا:

- إيه!

تبدأ الدموع تهرب من عين سنية ثم تكمل حديثها بتنهيدة قائلة:

- أيوة زي ما سمعت كدا، أنا نفسي في عيل يملي عليا حياتي ودنيتي، أنا طقهت وزهقت، نفسي في عيل من صلبي أربيه على إيدي ويكون سندي لما أعجز اتحامى فيه وأعلمه يكون رجلي يا نعمان، ولدي ويمشي في الشارع يقولوا عليه ابن سنية الحكيم ولّا ابن سنية المهندس ولّا الأستاذ.

تبدأ طبقة صوتها تتغير من طبقة رقيقة حنونة إلى طبقة خشنة قائلة:

علشان كدا أنا موافقة يا نعمان - وإن شاء الله - أنا حاسة أن الست دي هتكون السبب بعد ربنا أننا نخلف.

رد عليها نعمان مستسلمًا لكلامها قائلًا:

- طب قومي حضريلي الأكل وأنا هفهم من وهدان كل حاجة الفجر.

هواء يعيد الروح لمسكنها، قراءة حسنة بصوت الشيخ محمد رفعت تعلن عن موعد صلاة الفجر، بلدة مُدخل له الكهرباء حديثًا

ولكن يصر أهلها على إشعال لمبات الجاز لتنير لهم مضاجعهم، استيقظ الحاج نعمان ليصلي صلاة الفجر وجلب جلبابه من تحت المرتبة النائم عليها - كانت هذه الطريقة المستخدمة في كي الملابس قديمًا - ثم توضأ وارتدى جلبابه وذهب ليصلي في طريقه للمسجد، صادف الحاج وهدان وقبل أن يجد طريقة لبدأ الحديث معه حول موضوعهما وجده يقترب منه ويقول له بصوت خافض يكاد يسمعه:

- فكرت في اللي قولتلك عليه؟

- فكرت يا وهدان وموافق، بس عايز أفهم مين الست دي وبتعمل إيه؟

- ست واصلة أوي يا نعمان عارف محمود ابن عبد الملك؟

- أيوة طبعًا عارفه، مش ده اللي مراته مابتخلفش وعرف أنها حبلة من كام يوم ودبح عجل ووزعه على الناس.

- أيوة أهي منوت بقي هي اللي ساعدته أنها تبقى حبلة.

ليسأله نعمان قائلًا:

- مين منوت دي يا وهدان وساعدته ازاي؟

ولكن يقطع حديثهما صوت المؤذن لإقامة الصلاة وأخبره أن يصلوا أولًا وغدًا على القهوة سيخبره بكل شيء.

خرج نعمان من المسجد موكدًا على وهدان ما اتفقوا عليه قبل الصلاة، ثم ذهب وباله منشغل بداخله صراع، رأسه تكاد تنفجر، وصل لبيته ثم دلف لغرفته بدّل ملابسه ثم جلس على السرير بجانبه سنية نظر لها قليلًا، ثم أرحٍ جسمه على السرير ولكن قام مرة واحدة من مجلسه وهز سنية قائلًا:

- سنية أنتِ يا ولية قومي كلميني.

بعين مغلقة للنصف وهمدان جسدي ردت سنية وهي تخرج الكلمات من فمها بصعوبة قائلة:

- طيب، إيه، قايمة أهو.

- يا ولية قومي عايزك.

- سبني يا نعمان عايزة أنام يا راجل.

طب قومي بس.

تستيقظ من نومها ثم تتثاءب وعدلت جلستها قائلة:

- إيه يا نعمان، خير؟

بنبرة هادئة مقلقة رد عليها قائلًا:

- الصراحة كده أنا مش مستريح لموضوع الست دي حاسس أن أخرته وحشة، حاسس أننا بنغضب ربنا.

لترد عليه مستنكرة:

- هو إحنا لما نسعى يا راجل في موضوع الخلفة اللي نفسنا فيه نبقى بنغضب ربنا؟

- بس مش بالطريقة دي يا سنية..

- أومال بالطريقة أنهي يا نعمان؟

- مش عارف بس مش بالطريقة دي..

تبدأ سنية بالاعتدال، وتضع يدها على كتف زوجها وبنبرة هادئة مطمئنة تقول له:

- بص يا نعمان أوعى تكون فاكر أني مش عارفاك، أو أما تبينلي أنك شديد وقوي قدامي وصالب طولك أني مش هاعرف اللي جواك، أنت من جواك طفل حنين عكس براك، نفسك في عيل تشيله على إيدك وتدلعه وتحضنه وقت ضيقتك، نفسك في عيل يكون صلبك وتحت طوعك تعلمه في الدنيا ويشيل اسمك ونفسك فيه أكتر مني كمان، احنا يا حبيبي عملنا كل حاجة علشان نجيب العيل، وكل مرة بنفشل وبنغوط في البير أكتر وأكتر لما ربنا يبعتلنا حبل يشدنا بيه برا البير للنور بدل العتمة نرميه ونقول لا؟

كده نبقي أغبيا روح مع وهدان يا نعمان، وروحوا للست واعرفوا كل حاجة وكل اللي تتطلبوا مننا احنا جاهزين لو مال

الدنيا كلها، وإن شاء الله يكون الخير علي إيدها، روح نام أنت دلوقتي وماتفكرش في حاجة وبكره ربنا يحلها.

استسلم لرغبتها ونام وهو محملًا بالآلام عدة، يمتلك أواصر الحزن في قلبه، متمنيًا من الله إرشاده للطريق الصحيح.

بعد صلاة العصر ذهب الحاج نعمان والحاج وهدان للقهوة، نادَ الحاج نعمان العم سعيد العامل في القهوة ليجلب كوبين من الشاي ممزوجين بالنعناع، وشيشة نعمان المفضلة.

نزلت الشيشة ورص سعيد الحجر ثم بدأ نعمان في حديثه قائلًا:

- عايز أفهم كل حاجة يا وهدان، عايزك تقنعني.

- أنا عارف أن الكلام ده كله مش داخل دماغك يا نعمان، وعارف أنك مش عاجبك الطريقة، وعارف أن لولا سنية ماكنتش قعدت معايا القاعدة دي بس أنا هاجبلك الخلاصة، منوت ست واصلة وما بتتطلبش مليم واحد، بتطلب دهب وعلى حسب أمرك تقدره مفيش مرة خابت فيها، مفيش مرة حد راحلها ورجعته وهو مكسور الخاطر، وهنتكلم كتير ليه أنا روحتلها وقولتلها أننا جايين بعد صلاة المغرب جهز نفسك.

ليوبخه نعمان قائلًا:

- وأنت مين قالك يا راجل يا مخبول أنت تعمل كده؟!

- ما هو أنا عارفك هاتعقد تأجل لحد ما تنيم كل اللي حواليك لحد ما ينسوا، علشان كدا جهز نفسك هانصلي المغرب ونروح على طول..

طريق مُعتم وسط أرض زراعية، يمشي الحجَان ليصلوا لمنوت، منزل صغير وسط الأراضي بابه خشبي منقوش عليه نقوش من العصر العثماني، يطرق وهدان على هذا الباب وتفتح له منوت..

لينصدم نعمان، رأى امرأة بيضاء عينيها واسعتين لونهما بني غامق، شعرها أسود ناعم كالحرير تضع عليه قطعة من القماش سوداء تخفي نصه جمالاً عربيًا أصيلًا، أنثى جميلة بدت بالشكل غير المعهود للسحرة المشعوذين، حتى قطعت منوت انصدامه وسمحت لهما بالدخول.

منزل بدائي، إناء به حطب ونار وبجانبه وردة في إناء به ماء تناقض غريب لم يصدقه نعمان، جلسوا جميعًا على الأريكة لتبدأ منوت حديث موجهّ لنعمان قائلة:

- قول مرادك!

- الصراحة يا ست منوت أنا مراتي مابتخلفش، وتعبنا أنا وهي لف ودوران على الدكاترة وجبنا أدوية ومحاليل وعملنا تحاليل ومفيش حاجة نافعة لحد ما دلوني ولاد الحلال عليكِ..

ليقطع وهدان حديثه قائلًا:

- علشان كده جانلك يا ست منوت وعارفين أن على إيدك الشفا إن شاء الله..

تنظر منوت لوهدان نظرة ثقة، ثم ينزل وهدان عينيه من عليها لينظر على الأرض بانكسار ولا يفهم نعمان أي شيء.

لتنظر منوت لنعمان وتقول له:

- مرادك وصل كل اللي طلباه منك ١٥ كليو دهب، والأسبوع الجاي زي النهاردة في نفس المعاد تكون عندي بالدهب لوحدك وهاقولك مراتك هاتحبل امتى، اتفضلوا.

خرجوا من منزلها وعلى وجه نعمان ضحكة بمجرد أن نطقت منوت كلمة "مراتك هاتحبل" ولكن سرعان ما تحولت الضحكة لعبسة بمجرد تفكيره في كيفية تنفيذ طلبها..

ليقطع عليه وهدان لحظة تفكيره قائلًا:

- ماتقلقش يا نعمان الخير على إيدها إن شاء الله.

بعد خروجهما جلبت منوت سكين وورقة فارغة وجرحت السبابة بالسكين وبدأت تكتب بدمها على الورقة "المراد وصل" ثم ظرفت هذه الورقة في النار..

ذهب نعمان ووهدان إلى منزلهما، جلس وهدان مع زوجته هنية

ليجد على وجهها تكشيرة تسد الشمس، متوقعًا سببها سألها وهدان قائلًا:

- مالك يا هنية؟

- برده عملت اللي في دماغك ووديته لمنوت؟

- والله أنا بساعده، أنا معاكِ إن الأمر غريب إنها تطلبه هو بالاسم، بس ٥ كليو دهب مش شوية يا هنية.

(١٣)

نسمة هواء باردة ليالي فبراير المظلمة، سماء صافية، ترعة ومحول، كراسي يجلس عليها ثلاثة مقيدين بأحبال متينة، إن اثنين منهم فاقدي الوعي، مدحت جالس يركز في كل كلمة تخرج من فم أكترا، يحدثه في عينيه بدموع غزيرة تظهر ضعفه، منذ أن كان صبيًا وهو يرى ضعفه، يلازمه في كل أوقاته، في منامه، في قيامه، في خُلوته، وفي تجمعاته، جعله وحيدًا طوال حياته، أبعد عنه كل ما يملك، أراد أن ينتقم ولكن صوب انتقامه تجاه شخص بريء، فكلنا ضحايا ولكن باختلاف الأحداث، جمعينا مذنبون، إن هناك قلقًا يسري في وجدانه وعيونًا مليئة بالانتقام، يصوب مدحت نظره في عين أكترا يتابع كل حرف يخرج منه، لم يتخيل للحظة أن حياته المسالمة الهادئة ستنقلب رأسًا على عقب، منذ نعومة أظافره تحل عليه المصائب، والمصيبة الأكبر عند اكتشاف أن هو سببها.

صمت قاتل يقطعه أكترا قائلًا:

- فهمت حاجة؟

رد عليه مدحت بصوت نحيب يحاول أن يبعده عن أحباله

الصوتية قائلًا:

- قصدك أن منوت هي السبب أن أنا اتولد؟

ضحك أكترا ساخرًا من مدحت، يعامله كما تعامل الدنيا سكانها، ففئة أغلى شيئًا تمتلكه هو حزنها، وفئة أخرى تصنع للفئة الأولى أحزانها.

- بدأت تفهم هافهمك أكتر علشان أنت صعبت عليا، بس صعبت عليا شوية صغيرين خالص مش كتير يعني.

- أنجز عايز تقول إيه؟

بعدما اجتمع مِنوس ومعاونوه واجهتهم مشكلة كبيرة وهي كيفية إقناع ريتشارد بالمهمة، أتى به إلى القصر وجلس معه بمفرده وهو يعلم كل العلم أن هذا الجنس البشري من العالم الرابع يتم ترويضه عن طريق شيئين؛ وهما الخوف والطمع، وأدراك أن ريتشارد لن يجدي معه الخوف بسبب طبيعته العسكرية، فما كان أمامه غير أنه يغريه، فعرض عليه مليون كيلو من الذهب الخالص المتوافر بشدة في عالمنا، ويعد العملة الرسمية لمعظم الدول، ولكن هناك مشكلة أخرى، لماذا نثق في ريتشارد ما الضامن ألا يبوح ريتشارد بالسر؟ فأجبره مِنوس على إمضاء معاهدة تحتوي على بندان..

الأول:

أن يتعهد السيد مِنوس بدفع مليون كليو من الذهب الخالص للسيد ريتشارد بير، بعد إنهائه المهمة الموكل به بسلام.

الثاني:

أن يتعهد السيد ريتشارد للسيد مِنوس على عدم إفشاء المهمة المكلف بها لأي جنس بشري، أو أي شخص من عالم آخر أو أقرب الناس له، وإذا خلى بهذا البند يُلعن بالموت هو وجميع نسله.

قاطع مدحت حديث أكترا قائلًا:

- استنى، استنى لعنة إيه هو مِنوس ده ساحر؟

ليرد عليه أكترا ساخرًا:

- أحلى حاجة فيك غباءك، بسم الله ما شاء الله أنت وجنسك كلكم أغبية، لا مش ساحر بس من قواعد عالمنا أن أي أسرة بتتولى الحكم بتكون المخطوطة تحت إيدها، المخطوطة دي كان عملها لينا ملك الجن أيام سيدنا سليمان - عليه السلام - مقابل دخوله عالمنا بسلام، المخطوطة دي مكتوبة لحاكم العالم من أيام حكم الأسر الأولى، وبتتوارث لأي أسرة تحكم العالم وبيقراها اللي هيمسك الحكم بتديله قوى تفوق الطبيعة زي تحكمه بالزمن تحكمه بالمكان والوقت، النظر على أحوال العوالم الموزاية، الشخص اللي بيقراها

يظهر ويختفي يطير بتديله قوى رهيبة، المخطوطة دي محفوظة في لوح كبير في القصر الملكي، أي حد يخل بالتعويذة دي أو يحاول يسرقها يموت هو وأي حد بيحمل اسمه، فكان يقدر بسهولة أن يلعنه بسبب امتلاكه للمخطوطة دي.

طُلِب من ريتشارد عدة أبحاث علمية لعدة علماء أهمهم ألبرت اينشاتين الذي أوحى لنا فكرة البوابة، حيث إنه يُعرّف الكون بأنه كل كتلة أو طاقة أو زمان أو مكان، فلا يمكن تخيل الزمان دون مكان، ولا المكان دون أن يمر عليه زمان. وهو غير نهائي لكنه محدود.

وتحكُم الكون قوانين موحدة لا تختلف في أي بقعة منه ولا تتضارب، فكتلة نواة الهيدروجين هنا هي ذاتها كتلة نواة الهيدروجين عند الطرف الآخر من الكون، وشحنة الإلكترون ثابتة في أية بقعة من الكون، وكذلك العدد الذري والكتلي لأي من عناصر الجدول الدوري ونظيراته ثابتة لا تتغير. وبالضوء تنتقل المعلومات، وهو صاحب سرعة ثابتة أيضًا لا تتغير في الفضاء والفراغ أبدًا. وحيث إن مادة الكون واحدة ونواميسه واحدة، فإن المعلومات المنتقلة فيه تتبع ذات النواميس.

نحن كنا نعلم كامل العلم بوجودكم ولكن أنتم لا تعلمون، لذلك درسنا فيزياء الكم وهي الحالة الغريبة التي تبدو فيها

الجسيمات كما لو كانت في مكانين أو حالتين أو أكثر في آنٍ واحد؟ لماذا لا نختبر هذه الجسميات والذرات؟ ونصنع بوابة تتيح سهولة الانتقال بين العوالم الموازية؟ هذا هو مشروعنا الأبدي، طلبنا من ريتشارد كل الأبحاث وحددنا علماء بأعينهم وطلبنا منهم نظرية العالم أفيريت التي تتكلم عن حساب احتمالات وقوع الحوادث الكمية على المستوى الذري، في حال دراستنا لمادة كمية (جزيئات تحت ذرية) فإننا سنلاحظ أنها تتصرف بشكل غير منضبط، مما سيجعلنا غير متأكدين من طبيعة هذه المادة الكمية أو خصائصها.

فمثلًا، إذا درسنا سلوك الفوتونات الضوئية، فسنجد أنها تتصرف أحيانًا كجسيمات، وتتصرف أحيانًا أخرى كموجات.

كما أنه لا يمكن الجزم بأي من هذين الاحتمالين، فأي منهم يمكن حدوثه لحادثة بنسبة ٥٠٪، فإذا وضعنا كرتين إحداهما بيضاء والأخرى سوداء داخل كيس وأردنا أن نسحب كرة واحدة فقط، فاحتمال ظهور كليهما متساوٍ، ولا يمكن الجزم مسبقًا بأي كرة سيتم سحبها.

فإذا ما سحبت البيضاء مثلًا، نفذ القدر، ليصبح احتمال ظهور البيضاء هو ١٠٠٪، وظهور السوداء ٠٪.

لكن الفيزيائي أفيريت، لكي يخرج من هذا المأزق، افترض أن هذا الشخص ذاته موجود في كون آخر موازٍ لكونكم، ويقوم

بالتجربة نفسها في الوقت نفسه، لكنه سحب الكرة السوداء بدلًا من البيضاء، فتحقق بذلك الاحتمالان.

فإن كانت الاحتمالات ثلاثة، وجدت هنالك ثلاثة أكوان، وإن كانت مئة كان هنالك مئة كون آخر، إلى ما لانهاية من الأكوان الموازية التي تنشأ لحظة الاختيار.

كل هذه النظريات كانت هي قطعة البازل الناقصة عند علمائنا.

حدق مدحت في وجه أكترا وهو يفتح فمه قائلًا:

- أنا مش فاهم حاجة.

- بص الكون بيتكون من مواد زي جسميات ذرات والبروتونات والكواركات، اكتشفوا بقى أن دول مش أصغر مواد الكون، إنما الكون بيتكون من أشياء لا متناهية الصغر، وهي أوتار تتذبذب بطرق مختلفة، فتشكل لنا المادة التي نعرفها حولنا من عناصر طبيعية وأرض وهواء وكواكب ونجوم ومجرات، ومن هنا خلقت نظرية الأوتار الفائقة، النظرية دي بتقول إن الأوتار دي بتعيش في كون له تسع أبعاد مش تلاتة، بس التلات أبعاد دول هما الزمان والمكان والزمكان، الأبعاد الباقية دي بقى تعيش فيها عوالم تانية ممكن تنظر على العوالم دي، بس أنتوا متعرفوش تشوفونا وخاصة عالمكم الرابع منهم عالمنا، علشان كدا إحنا بنشوفكم وأنتوا لا فهمت؟

- شوية.

- فيه عالم عندكم اسمه ستفين هويكنج عارفه؟

- آه طبعًا.

- حلو، الراجل ده وضع فرضية أن انفجار الكون العظيم من مليارات السنين خلق أكوان موازية ليكم بتشبه كونكم في حاجات وبتختلف عنه في حاجات تانية، وافترض أن الأكوان المتوازية دي ليها نفس القوانين الفيزيائية نفسها، علشان كدا قال من الممكن إننا ندرس كون واحد بس فنفهم الباقي، كل ده ساعدنا في أبحاثنا في عمل بوابة دائمة تسهلنا الوصول لكل العوالم والأكوان، أدى ريتشارد المهمة على أكمل وجه وجمع كل الأبحاث اللازمة، وبدأ يشتغل علمائنا على كل هذه النظريات وعمل بوابة دائمة تُفتح بتحكم إلى من ملك العالم، في البداية كنا أخرنا بوابة مؤقتة ١٠ أيام بالكتير وتقفل، إنما هدفنا أكبر عايزين بوابة دائمة، تسهل الدخول للعوالم الأخرى بسهولة، طول عمرنا شيفينكم وشايفين موارادكم ومستغربين ازاي عندكم فقرا، كل حاجة كانت تمام وتوصلنا لكل حاجة مطلوبة لفتح البوابة وكان كل شيء ماشي زي ما متخطط له بالظبط، واخترنا نبدأ بعالمكم وحددنا المكان في الجهة المقابلة عندكم، حانت لحظة الحسم اللحظة اللي كلنا مستنينها لحظة فتح البوابة، عملنا احتفالية كبيرة حضرها كل سكان العالم، ولما

ضغط السيد مِنوس على زر الفتح مفتحتش، دي كانت لحظة سيئة وكسرت كل النفوس والكل كانوا في ذهول واليوم ده اتسمى عندنا بالكارثة وبنخلد ذكراه كل سنة.

ليقطع مدحت حديثا شامتًا:

- أحسن، أحسن.

ليضحك أكترا قائلًا:

- ستعرف الآن ما هو الأفضل والأسوأ.

فكانا كنا مقهورين حتى عندما أنقذنا الكاهن الأكبر.

نفوس يمتلكها اليأس، عالم بأكمله ضواحيه حزينة، يجلس مِنوس في قصره الملكي يأسًا بجانبه أكترا يتناولا فطورهما حتى أَبلغه أحد حُراسه بطلب الكاهن مقابلته، فأمر بإدخاله، دلف الكاهن للداخل وحي سيده ثم بدأ بالحديث قائلًا:

- سيدي أجريت عدة محاولات وبالنظر للمستقبل توصلت لسبب عدم فتح البوابة.

رد عليه مِنوس مهرولًا:

- تحدث ما هو؟

لا بد من أن تغير مكان فتح البوابة في العالم الرابع تجعله في

مكان مخفٍ ويكون محاطًا بالماء، والشيء الثاني والأهم لا بد أن يولد شخص فِي العالم الرابع في يوم فتح البوابة، وفي نفس الثانية التي تضغط فيها على زر الفتح ويموت في نفس الثانية شخص أخر، هكذا ستُفتح البوابة ولن تضيع جهودكم سدي..

أجرى السيد "مِنوس" اجتماعًا عاجلًا مع العلماء، وتم وضع خُطة مُحكمة لنجاح فتح البوابة، وتخيل يا مدحت أي مكان اختاروه؟ بالفعل مثلما فكرت، اختاروا المكان هذا، الذي نحن واقفون عليه حاليًا.

رد عليه مدحت قائلًا:

– كدا أنا فهمت أنتوا اختارتوا منوت علشان تساعد أبويا وأمي أنهم يخلفوني ليه؛ لإن أنا طبعًا الشخص اللي هاتولد ساعة فتح البوابة، وعم محمود هو الشخص اللي هايموت وطبعًا أنتوا اللي قاطعتوا الكهربا وكل الحاجات دي، بس اللي أنا عايز أفهمه ليه منوت تساعدكم وليه عم وهدان يساعدها ليه؟!

– منوت استغلينا غرورها بجمالها اللي كانت مهووسة بيه، حطينا خطة محكمة وطلبنا منها تساعد ناس غير أبوك وأمك علشان يخلفوا، علشان تثق فينا وأغرناها بدهب كتير علشان تثق أكتر، أما وهدان فهو كان فاكر أنه بيساعد أبوك، والخمسة كيلو دهب زغللوا عينه، ويا ريت تسمحه هو وهنية زي ما هي وصتك.

رد عليه مدحت بنبرة حزن تزيد همًا على همه قائلًا:

- وصتني على إيه أنا للأسف معرفتش أكون معاها قبل ما تمشي وتسبني.

ليرد عليه أكترا بضحكة تعتلي وجهه قائلًا:

- لا ما أنت روحتلها وودعتها وهي كانت هتبوح بالسر، وأي حد يحاول أن يبوح بالسر يموت، كنت طول الفترة دي منتظر أنا اللي أقولك السر، فمسحت الذكرى من عقلك وموت هنية.

ثم أكمل ضاحكًا:

- وفرحات كان هيكشف ميعاد دخولي من البوابة اللي هو يوم عيد ميلادك، وأبوك كان هيبوح بالسر مع أن منوت وصته أنه ميتكلمش معاك في الموضوع فكان لازم يموت، وهدان مات لوحده لأنه الوحيد اللي متكلمش في السر، مرضتش أمحي ذكريات أبوك ولّا حكاية هنية أول يوم روحت قعدت معاهم علشان تتألم أكتر كل ما تتفكرهم، منوت جاتلك تحذرك مني نسيتك كل حاجة بس للأسف موتها كانت عجوزة كدا كدا، غبية ماتعرفش إني قدرك ومحدش هيقولك سرنا غيري.

ليصيح مدحت في وجهه والنار تخرج من عينيه قائلًا:

- إشمعنا أنا؟

- أنت بتقدر تعمل كل ده ازاي؟

تبدأ الترعة تصدر ترددات عجيبة ونورًا شديدًا قويًّا يخرج من منتصفها، وفجأة انشقت الترعة نصفين لتفتح بوابة يخرج منها شخص، تبدأ تتغير تعبيرات وجه أكترا للصدمة ثم قال بصوت يملأه الخوف: أبي!

ليبدأ نولن بالحديث قائلًا: واحشتني يا أكترا...

(٢٤)

أمواج بحر هادئة، يرسم القمر على المياه ظلاله، جو شاعري، ضحكات شديدة، سعادة غامرة، عالم بديع، جماله فائق كمثل جمال حبيبته، ليلة بديعة وحبيبان يجلسان على الشاطئ، يظهر انعكاس أوجههم السعيدة على المياه، تاركين كل شيء خلف ظهورهم، غير متذكرين حياتهم، كل ما يفكران فيه الآن أن يستمتعا مع بعضهما البعض، يجلس أكترا وحبيبته سوميرا يتناولان كوبين من القهوة، يساعدهما على تحمل هذا البارد القارص، تتشابك أيديهما وقلوبهما لتعطيهم شعورًا دافئًا بالرغم من درجات الحرارة المنخفضة، قطع هذه اللحظة صوت من بعيد حتى اقترب فأصبح جاهرًا، صوت حُراس ينادون بأعلى أصواتهم، يغرسون سهامهم في الرمل كلما اقتربوا من أكترا وسوميرا، في قلوبهم رعبٍ ولكن هذه هي الأوامر ليس في أيديهم شيء، صاح فيهم أكترا قائلًا:

- قف! أنت وهو ماذا تريدون؟

رد عليه قائد الحراس قائلًا:

- طابت ليلتك يا سيدي، نحن في مهمة مرسلون من الملك

لأخذ السيدة سوميرا واحتجازها.

تهجم عليه أكترا وضربه في قدمه نظرًا لفرق الطول الشاسع بينهما قائلًا:

- ماذا تقول أيها الوغد! ما التهمة المنسوبة إليها؟

- أهدا يا سيدي، حقيقةً لا أعلم ولكن علينا تنفيذ مهمتنا.

أدخل الحراس سوميرا في قفص، ثم حملوه على أيديهم، وحين كانوا يستعدون للرحيل صرخت سوميرا بشدة وهي تبكي بحرقة قائلة:

- أكترا، انقذني جدك سيقتلني، لا محالة سيقتلني.

بدأ الحراس في الُمضي قُدُمًا، وفي نفس اللحظة جسا أكترا على ركبتيه مصوبًا نظره تجاه حبيبته، يراها محتجزة أمامه وهو ليس قادرًا على فعل شيء، لا يجب أن يظهر ضعفه أمام أحد، ولكن غلبته دموعه هذه المرة وبكى وهو يلوم نفسه على ما حدث، وسأل نفسه عدة أسئلة:

- هل سأقف مكتوف الأيدي هكذا؟

- هل سأظل شاهدًا؟ هل سأتهرب من المواجهة كالفأر مثلما أفعل كل مرة؟

- هل سأجعل جدي يتحكم فيَّ طوال عمري؟

لا بد من وقفة، ذهب أكترا لقصر جده مسرعًا، طلب مقابلته ولكن أخبروه الحراس بأن السيد مِنوس في اجتماع مع العلماء الآن، لم يطيق الانتظار وضرب برجله باب القاعة، ودخل على جده قائلًا له بحدة تحمل قي ثنيها عتاب قائلًا:

- لماذا؟

- أنا لم أفعل لك شيئًا!

- لماذا أنا دائمًا؟

- لماذا تفعل بيَّ هكذا؟

أمر السيد مِنوس العلماء بالانصراف وطلب من الحراس ألا يسمحوا لأحد بالدخول، ثم مشي بخطوات بطيئة إلى كرسيه الملكي، ثم جلس ورد على أكترا قائلًا:

- حفيدي العزيز وملك العالم القادم.

- أرجوك يا جدي لا تتصنع البرود وأجب عليَّ رجاءً، لماذا احتجزتها؟

انفعل مِنوس عليه قائلًا:

- ألم أقل لكَ مرارًا وتكرارًا أن تبتعد عن هذه الفتاة فهي لا تناسبنا.

– لماذا لا تناسبنا؟ هل نمتلك قدمًا زيادة عنها، أم نمتلك عينين زائدتين؟ نمتلك مالاً؟ ماذا سيفيد المال، عندما تكون وحيدًا لا تجد من يحمل معك عبئك؟ ماذا يفيد المال؟

– لا تسفسط كثيرًا، وتتحدث بفلسفة، هذه الفتاة أبيها حارسًا لدي، ليس من المعقول أن أسمح لك أن تتزوج فتاة أبيها حارس لديَّ، حتى وأن كانت مثلنا، لا تعني ليَّ شيء طفرتها الجينة، أنا لم ولن أضع يدي في يد حارس.

ليبدأ مدحت بالتوسل له قائلًا:

– جدي، أنني أحبها من طفولتي، منذ اللحظة التي رأيتها فيها ونحن صغار، عندما كان يتحدث عنها أهل المدينة بسبب طفرتها الجينة، حين رأيتها انتفض قلبي، إن جمالها خارق، وعينيها أذوب فيهما مثلما يذوب الحديد بالنار، كل مرة أنظر إليها أشعر بأنني سعيد، تنتشلني من لحظات حزني حينما أسند رأسي على أكتافها، كل لحظة وكل دقيقة وهي غائبة عني أرى العالم أسودًا أمامي، وحينما أراها يتحول كل شيء أمامي إلى ألوان زاهية تمحي لون حزني الباهت، جدي أقولها صريحة لن أتخلى عنها، لن أتخلى عن السبب الذي يجعلني أعيش، لن يحدث أبدًا حتى لو كان نتيجته أنت..

رد عليه جده بحدة قائلًا:

- أغرب عن وجهي أيها الأحمق اللعين، اذهبا للجحيم أنت وهي.

خرج أكترا ودموعه سائرة كنهر جارٍ على وجنتيه، صادف أبوه ليحدثه بحدة رافعًا السبابة في وجهه قائلًا:

- أخبره أنني لن أتخلى عنها مهما حدث، حتى لو كلفني الأمر حياتي وانصرف مسرعًا لغرفته.

دخل نولن إلى القاعة محدثًا أباه قائلًا:

- ماذا يحدث؟

- طفل وسيظل طفلًا، لا يفهم شيئًا، يحب فتاة أبيها حارسًا..

قاطعه نولن قائلًا:

- أقصد الفتاة صاحبة الطفرة الجينية، أتقصد سوميرا؟

- نعم، يريدني أن أضع يدي في يد حارس وضيع، الشخص الجالس على عرش العالم بعدي تشغله هذه المواضيع التافهة، تسوقه مشاعره البلهاء.

كان يحب مِنوس أكترا أكثر من نفسه، علمه كل شيء منذ نعومة أظافره، جلبَ له أفضل العلماء في كافة العلوم، ترعرع أمامه كلما كان يراه يكبر في السن، يرى نفسه فيه يراه حاكم العالم القادم، انتظر اللحظة المناسبة حتى يبلغ السن القانوني وينصبه بنفسه، حتى

فضله على ابنه واختاره هو لتكملة مسيرة أسرته، لذلك أكترا شابًا محبوبًا جدًّا بين أفراد عالمه الكبار منهم والصغار، يتمتع بالذكاء الخارق من صغره، إن ذكاءه الاجتماعي جعله قريبًا من الكل إلا نفسه، قريب منهم قُرب صوري فقط، فهو وحيد دائمًا حتى ظهرت هي.

أكمل مِنوس قائلًا:

- دعك منه، هل الحفل جاهز لفتح البوابة؟

- جاهز يا سيدي، لا ينقصنا سوى تشريفك لبدأ الحفل.

- أجلب ليَّ أكترا، أريده أن يكون بجانبي، أريد أن يرى الشعب حاكمهم القادم في كافة المناسبات القادمة.

- عُلم وينفذ يا سيدي.

جهز مِنوس نفسه واصطحابه نولن لمكان الحفل، حشود عديدة، وأناسًا من كل مكان ينتظرون بشدة حدثهم الأكبر، ينتظرون أن يروا مستقبل أولادهم يزهر أمامهم، صعد مِنوس للمنصة وبدأ في إلقاء خطابه قائلًا:

- شعبي العزير..

نحن الآن على صدد بداية جديدة، مستقبل مُنعم بالآمال الكثيرة لكم ولأحفادكم ولأحفاد أحفادكم، نحن على صدد فتح

البوابة الدائمة التي ستسمح لنا التنقل بين العوالم، سنكون قادرين على توفير الموارد الدائمة لعالمنا بكل سهولة، سنكون قادرين علي الاطلاع علي أبحاث العوالم الأخرى واستخدامها لصالحنا، سنكون نحن الأقوى كما هو معروف عنا دائمًا، سنكون نحن المتحكمون في شتى بقاع الكون.

أنهى مِنوس كلمته، أتبعها تصفيقًا حارًا من الشعب بكل طوائفه، جلس مِنوس ليرتاح قبل أن تبدأ اللحظة الحاسمة، نظر بجانبه يمنيًا ويسارًا ولم يجد أكترا.

مكان ضخم مُشيد بحرفية هندسية شديدة يشبه القلاع، ولكن باختلاف مادة بنائها، أسواره عالية، بُني من حديد مقوي، فأصبح حاجزًا حديديًّا لم يقدر أحد على تخطيه، بداخله زنزانة من حديد، تجلس بداخلها فتاة جميلة، خارج هذه الأبواب حارس يقف واضعًا عينيه في منتصف رأسه، لا يجفن رمشه ولو مرة واحدة، حاول أن يدخل أكترا لمحبس حبيبته ولكن منعه الحارس، منعه حتى أن يراها، يبرر له أن هذه أوامر عُليا من السيد مِنوس، حاول أكترا بكل الطرق الممكنة، بالشدة واللين، ولكن بلا جدوى حتى أعطى الحارس رشوة، أعطاه ثلاثة كيلوات من الذهب الخالص للسماح له بالتحدث مع حبيبته لمدة لا تتجاوز الربع ساعة، وافق الحارس منبهًا عليه ألا يطول، دخل أكترا على حبيبته، وضعها تجلس واضعة

رأسها بين أيديها، يعلو صوت نحيبها مخترقًا كل الحواجز الحديدة وقلبه، كتم أكترا بكاءه وعدل طبقة صوته من الضعف إلى طبقة قوية ليعطيها شعورًا مطمئنًا ثم أردف قائلًا:

- أهذا هو اتفاقنا؟ نحن اتفقنا أن نتخطى الصعاب معًا، أريدك قوية مثل حبيبك.

بمجرد أن رآته قامت من مكانها وارتسمت ضحكة على وجنتيها، ارتمت في أحضانه قائلة:

- اشتقت إليك.

ربت مدحت على ظهرها ثم هدأها قائلًا:

- لا تقلقي يا ملاكِ، سأخرجك من هنا اليوم قبل غد.

- كنتُ أعرِف أنك لن تتركني، لكن جدك زارني اليوم، لم يتفوَّه بكلمة، نظر إليَّ نظرة أرعبتني، كانت عيناه بداخلهما الشر، أنا لست مطمئنة.

أمسك بيدها ثم تفوَّه بحدة قائلًا:

- عليه اللعنة، عليهم اللعنة جميعًا! أنا هنا بجانبك، مستعد أن أخسر كل العالم لأجلك، لأجلك أنتِ فقط.

وجاءت اللحظة الحاسمة، شعب بحاله ينتظر، مخططات بالسنوات تحكم نجحاها هذه اللحظة، قام مِنوس من مكانه ثم

ذهب للزر وأزال الغطاء من عليه ثم سمى الله وضغط، وهنا حدثت المفاجأة..

لم يخطر على بال أحد حتى هو، لم تُفتح البوابة، خيبات أمل جماعية، انتهى عمل استمر لسنوات، حلم أصبح زائفًا، انعدام الثقة بين الحاكم وشعبه، سُمي هذا اليوم بالكارثة، كان الجميع في حالة غضب عارم، وعود لم تتحقق، مشروع فاشل، كانوا يأملوا أن يذهبوا لبيوتهم فرحين..

كان مِنوس لا يقل غضبًا عن شعبه، بل يزيد غضبه لدرجة أن دمر كل الأواني الفخارية الباهظة في قصره، أمر باجتماع عاجل لكل المسؤولين عن هذا الأمر، جمع العلماء والكهنة والمستشارين، وبخهم جميعًا، بث في قلوبهم الرعب، طالبهم بإيجاد حل لهذه المشكلة في أسرع وقت، وإلا سيكون له رأي آخر.

انتهى الاجتماع وبعد هذه الدقائق العصيبة دخل أكترا على جده بوجه بشوش مبتسمٍ أملًا أن يجدي الحديث معه ويفرج عن حبيبته، انفعل جده عليه قائلًا:

– يا ملك العالم المستقبلي، يا سيد العالم القادم، نحن نقع في أكبر ورطة مرَّت علينا منذ بداية خلقتنا، نمرُّ بأصعب وقت، وأنت تقول لي سوميرا وهراء كهذا، من الأفضل يا سيد أكترا أن تنتبه لأحوال عالمك، من المفترض أن تقف وتفكر معنا في حل هذه المشكلة،

بصفتك الملك المستقبلي بدلًا من حديثك التافه اللعين هذا.

اقترب منه أكترا ببطء ومع كل خُطوة يخطيها تزامنها دمعة تنزل من عينيه، وقف أمامه لا يفصل بينهم شيء قائلًا:

- لا يهمني هذا العالم، لا يهمني كرسي العرش، لا يهمني أي شيء، حتى أنت لا تهمني، أنا كل ما يهمني هي سوميرا، سوميرا فقط.

غادر أكترا وهو هم الدنيا في قلبه، يفكر كيف سيخرج حبيبته من هذه الورطة، نادمًا على حديثه مع جده، ذهب أكترا لغرفته وجلس على سريره الذهبي ثم فتح درج الكومود وأخرج منه صورة حبيبته وقبّلها ثم أردف:

- سنكون معًا، سنكون حتمًا معًا.

في نفس اللحظة جن مِنوس، لم يتوقع أن حفيده الذي يجهزه طوال السنين الفائتة ليصبح خليفته يتحدث هكذا، حلَّت عليه مصيبتان في نفس اليوم حتى قرر أن ينهي أحداهما..

طلب مِنوس من حراسه أن يجلبوا له سوميرا من محبسها، دلفت للداخل يملأ القلق وجدانها، هيبته تبث الرعب بداخلها حتى تحدث قائلًا:

- أنتِ فتاة جميلة ولكن هذا قدرك.

شاور مِنوس بيده للحارس الواقف بجوارها، أخرج الحارس سيفه ومسكه من غمده، ثم دبب أخره في بطنها وشق الجزء السفلى منها ليصبح جزآيها كل واحد منهما في ناحية..

أعتقد مِنوس أنه ينقذ ما تبقى، أنقذه ولكنه لم يكن يعلم أن الوقت قد نفَذ..

وضع أكترا صورة حبيبته في مكانها مرة أخرى ثم استعد لزيارتها مرة أخرى، وهو يهندم ملابسه طرق باب غرفته، سمح للطارق بالدخول فوجده أباه، دلف بداخل الغرفة برأس مطاطية ووضع يده على كتفه ثم أردف بنبرة حزينة:

- أمر جدك بإعدام سوميرا، وقد نُفذ الحكم.

نزل الخبر عليه كالصاعقة، خرج أبوه وتركه وحيدًا كالعادة لم يجد ما يمكن قوله، لا تنفع كلمات مواسية، قُتلت سوميرا بدم بارد، وقُتل قلبه معها.

جسا على الأرض وظل يضرب دماغه بالأرض يلوم نفسه، يا ليتني ما أحببتك، يا ليت ما دخل قلبي عشقك، أخرج حافظة نقوده ثم نظر لصورة حبيبته التي لم تفارقه للحظة تنهمر دموعه على الصورة الصغيرة، خافية ملامح حبيبته ولكن يراها كل لحظة لا يراها بعينه، يراها بقلبه.

ذهب لآخر مكان التقيا فيه، ذهب للشاطئ نظر للبحر فيرى انعكاس وجهها عاطيًا للبحر جمالًا فوق جماله متذكرًا لحظاتهما سويًا، يتذكر أول مرة تحدثا فيها عندما كانوا صغارًا، عندما رأى أطفال المدينة يضربوها فتدخل وأبعادهم عنها وأعطته هذا اليوم حلوى، وضع يده في جيبه وأخرجها ما زال محتفظًا بها منذ أن أهدته هذه الحلوى، فتح الحلوى وتناولها وهو يظرف دموعًا غزيرة من كثرها زاد مستوى البحر ضعفين، ثم نظر لوجه حبيبته المنعكس على المياه قائلًا:

- أعرف أنكِ غاضبة مني، أعرف أنني خلفت وعدي معكِ، ولكن أقسم لكِ إنني كنت لا أعلم، لو كنت أعلم لكنتُ قُتلتَ مكانك، طعنوني في ظهري وانتقموا منى بكِ، انتقموا مني وعاقبوني بكِ يا حياتي، قام من مجلسه ليقف منتصبًا، مسح دموعه بيده وتغيرت نبرة صوته الحزينة إلى نبرة شريرة قائلًا:

- لكن حان وقت الانتقام، حان وقت الانتقام يا سوميرا.

نام أكترا هذا الليلة في قلبه جبال من الحزن، يصحى وينام يحلم بها حتى شرقت الشمس وولد معاها انتقامه.

مائدة كبيرة عليها جميع أصناف الأكل، يجلس مِنوس في مقدمتها منتظر أكترا، دخل أكترا وهو يرتدي ملابسه الأَنيقة معطرًا بعطر جميل وعلى وجهه ابتسامة بشوشة، ملامحه توحي بالرضا، جلس

بجوار جده، وبدأ يتناول طعامه.

تعجب جده من ردة فعله، وقرر أن يقطع إفطاره وسأله:

- هل وصل لك الخبر؟

رد عليه أكترا وهو يقضم لقمة قائلًا:

- نعم وصل.

- وما رأيك؟

- بعد تفكير عميق أدركت أن هذا هو الصحيح، أدركت أنني كنت لا أحبها، كنت أرى فيها فقط ما لا أراه في نفسي، بنت فقيرة من طبقة متوسطة أبيها حارس لديك في القصر، كان لدي فضول أعرف كيف يعيشون هؤلاء الناس؟ فتعلقت بها وأدركت بعد ذلك أنني كنت لا أحبها، بل تعلقت بها.. تعلقت بها فقط.

رد عليه جده ووجهه يغمره السعادة قائلًا:

- هذا هو ولدي، أهلًا برجوعك مرة أخرى لي، ثم ضمه إلى صدره قائلًا:

أحبك، أحبك أكثر من أي شيء يا ولدي.

ليرد عليه أكترا وعيناه يخرج منها نظرات شر وهو يبتسم قائلًا:

- وأنا أحبك أيضًا.

قطع هذه اللحظة العاطفية بين الجد وحفيده حارسًا، يبلغ مِنوس بأن الكاهن يريد جلالته في أمر هام بخصوص فتح البوابة، ليَأمره مِنوس بجلبه مسرعًا، دلف الكاهن للداخل وحي سيده ثم بدأ بالحَديث قائلًا:

- سيدي أجريت عدة محاولات، وبالنظر للمستقبل توصلت لسبب عدم فتح البوابة.

رد عليه مِنوس مهرولًا:

- تحدث ما هو؟

لا بد من أن تغير مكان فتح البوابة في العالم الرابع، تجعله في مكان مخفٍ ويكون محاطًا بالماء، والشيء الثاني والأهم أنه لا بد من أن يولد شَخص في العالم الرابع في يوم فتح البوابة، وفي نفس الثانية التي تضغط فيها على زر الفتح، ويموت في نفس الثانية شخص أخر، هكذا ستُفتح البوابة ولن تضيع جهودكم سدي..

- أيوة، أيوة وبعد كدا اجتمع مِنوس بالعلماء واستقروا على مكان البوابة، وطلعت المكان اللي إحنا فيه ده عارفين القصة دي.

أخرج مدحت هذه الكلمات خلال الحديث الدائر بين أكترا ونولن، ولكن تعجب نولن ورد عليه نولن قائلًا:

- ماذا تقول يا شبيه ابني؟

– من قال لك إن مِنوس اجتمع بالعلماء؟ مِنوس لم يكن موجودًا أصلًا!

نظر مدحت لأكترا ثم قال متعجبًا:

– ازاي، أكترا هو اللي لسه قايل كده من شوية!

بعد خروج الكاهن من القصر فكر مِنوس في فكرة عبقرية، فكر أن يجحم أكترا في هذا الملف، لأنه سيكمل السن القانوني بعد أيام قليلة، وبمجرد أن يرى الكاهن منامه يتم تنصيب أكترا مباشرة، (في هذا العالم معروف أن لا بد للكاهن الروحاني أن يرى حاكم الأسرة الجديد في منامه ولا يكتمل التنصيب إلا برويته).

طلب منه أن يعمل على هذا الملف الهام جدًّا، ويتحمل مسؤوليته ووضع آماله فيه، يريده أن يطمئن أنه سيكون قادرًا على تحمل المسؤولية من بعده، ومن ناحية أخرى، إذا كان في قلبه شيء لهذه الفتاة ينساه بانشغاله في هذا الملف.

جاء أكترا في نفس الليلة بمذكرة من الكاهن تفيد بأنه رآه في منامه ويجب تنصيبه، ذهب بالمذكرة لجده بمجرد أن رآها مِنوس، فرح فرحًا شديدًا ثم أخرج من اللوح المخطوطة وسلمها لأكترا، قرأها ومِنوس يبتسم ابتسامة فخر، أخيرًا سيرتاح من عبء المسؤولية، ولكنه لم يكن يعلم أنه سيرتاح للأبد..

بعد ما قرأ أكترا التعويذة مباشرةً، أصبح يتمتع بكل قوى المخطوطة، أصبح حاكم العالم، نظر لجده ثم أزاح من عند وسطه جلبابه بيده وأخرج سيف يملأ ثنياه الدم ودبب رأسه في بطن جده، وشق الجزء السفلي منه ليصبح جزآيه كل واحد منهما في ناحية..

ثم نادَ على والد سوميرا ليخرج الجثة..

قبل ليلة.. ذهب أكترا إلى منزل سوميرا بعد ذهابه للشاطئ، وجد والد سوميرا يجلس بضخامته في غرفة ابنته الصغيرة، يمسك في يديه صورته ويحكي لها بعض من حكايته، لا يُنزل دمعة واحدة، ولكن صوته يدل على انفطار قلبه، كتم أكترا دموعه ثم قال بحدة:

- ستبقى على حالك هذا؟

نظر له والد سوميرا ثم أردف بحزن:

- ليس بيدي شيء.

- لا تقل مثل هذا الهراء، أنت تعمل في القصر، معاد عملك غدًا في الصباح أم المساء؟

- في المساء.

ذهب أكترا إليه ثم جلب كرسي ووقف عليه مربتًا على كتفه قائلًا:

- سأجعل سوميرا تفتخر بنا غدًا، سأجلب لها القصاص، ثم

غادر.

- قتله؟!

- نعم يا شبيه ابني، كان يري هذا انتقامًا عادلًا لروح حبيبته، وفى بوعده لها بأنه سيقف أمام العالم أجمع لأجلها، وبعدما ماتت حبيبته مات قلب أكترا وبات لا يهمه شيء سوى مواصلة الانتقام، ليس من جده فقط بل من العالم أجمع، وبرؤيتك تجلس هكذا، بات أنه يريد الانتقام من الكون أجمع.

نظر أكترا لأباه ثم صاح فيه قائلًا:

- لماذا تأتي الآن بعد كل هذا الاختفاء؟

- بعد فعلتك وتدميرك لعالمنا، هربت من شرورك، أنت لست ولدي الذي أعرفه، قرأت تعويذة الحماية والاختفاء الذي أعطاها لي جدك، تحسبًا لأي غدر واختفيت في مدينة بعيدة عن اسجاردا.

ليقاطعه أكترا:

- ولماذا تأتي الآن؟

- لأرجعك لصوابك يا بني، لآخذك معي لبدء صفحة جديدة في علمنا، وننسى كلِ ما فات ونبدأ حياة جديدة، وهِا أنا هنا فاتح ذراعي لأضمك، تعالَ في حضن أبيك يا أكترا، تعالَ..!

نظر له أكترا بنظرة شفقة، يريد أن يرتمي في أحضان والده،

اقترب منه ثم تذكر ما حدث لحبيبته، نظر ليده ليظهر فيها سيف من العدم، ثم قطع رأس والده لتتناثر دماؤه على أكترا وعلى الأرض.

انصدم مدحت ثم قال له بصوت خافت يدل على الخوف:

- أنت عايز إيه مني؟ أنت بتعمل كل ده ليه؟

رد عليا عايز إيه؟

صفعه أكترا صفعة قوية جعلته ينزف، ثم ابتعد عنه قليلًا ناظرًا لجثة والده، يغرز رجله في بركة دماؤه المختلطة بالتراب، ثم اقترب من مدحت بخطوات بطيئة، جسا على ركبتيه ثم نظر لعين مدحت قائلًا:

- عايز تعرف أنا عايز إيه؟ ثم شرد نظره تجاه آية، ثم نظر لمدحت مرة أخرى قائلًا:

- هقولك.

(١٥)

بنفس سيناريو حلمه سحب كرسيًا وجلس عليه، وأخبر النادل بطلبه ثم أخرج رواية أولاد حارتنا يحاول أن ينسى ما رآه منذ قليل، ليلمح بطرف عينيه آية تدخل عليه، ولكن بملامحها الطبيعة وتسحب كرسي وتجلس أمامه لا يحيل بينهم سوى المنضدة ثم أردفت:

- ازيك أنا آية زميلتك في الكلية.

ظل مدحت محدقًا في وجهها للحظات ثم قال لها:

- أهلا بيكِ، أنا مدحت.

لمحت آية بعينها كوب الشاي على المنضدة ثم سألت مدحت:

- أنت بتحب الشاي بالنعناع ولّا جايبه علشان تهدي أعصابك؟

- لا بحبه ده مشروبي المفضل.

سرح مدحت قليلًا، ثم سمع صوتًا مهموسًا يخبره في أذنه قائلًا:

- بتلّمح.

قطع صوت آية سرحانه وهي تخبر النادل بأن يجلب لها كوبًا من

الشاي ممزوجًا بالنعناع، وأكدت عليه قائلة: (وصاية).

ثم نظرت للأرض وبعد لحظات صوبت نظرها لمدحت قائلة:

- آسفة على التدخل في خصوصايتك، ولكن عندي سؤال أسأل ولّا هيضايقك؟

- لا متتأسفيش، اتفضلي اسألي.

- هو إيه اللي حصلك جوه ومخليك بالحالة دي، أنا عارفة إنك طالب مجتهد ويعز عليك أن دكتور يطردك.

دون تفكير نظر مدحت لها ثم قال:

- أنـ..

وقبل أن يكمل كلمته سكت وقال لها:

- مفيش.

شعرت آية بأنها تطفلت عليه فشعرت بالإحراج، ثم أردفت:

- أنا آسفة مرة تانية، أتمنَّى تكون بخير.

وقبل أن تغادر أوقفها مدحت قائلًا:

- أنتِ يا آية

نظرتِ له باستعجاب ثم جلست مرة أخرى وقالت:

- أنا! ازاي مش فاهمة؟!

- حلمت حلم إنك قولتيلي ألحقك قبل ما حد يخطفك.

- والحد ده كان مين؟

- أنا.

كانت هذه الكلمات هي بداية لقصة حبهما، بكابوس وكوب من الشاي التقى الحبيبان، نظر مدحت لآية المغشى عليها والمقيدة على كرسي بجانبه، يلوم نفسه مثلما لام أكترا نفسه، قصتهما متشابهة كثيرًا ولكن باختلاف الأسباب، فأكترا ضحية جده، ومدحت ضحية أكترا، فجمعينا ضحايا ولكن باختلاف الأسباب، تذكر مدحت كل أوقاتهما معًا، تذكر عندما قال لها:

- أنا اللي هخطفك.

لترد عليه محاولة كتم ضحكتها قائلة:

- وتخطفني منك ازاي بقا إن شاء الله؟

نظر إلى عينيها مباشرة وقال لها:

- ممكن تفتكريني مجنون، لكن بجد ده حصل، وهو ده اللي كان مخليني في الحالة اللي أنتِ شوفتيني بيها جوه دي، يمكن كل دي هلاوس إرهاق تعب بسبب موت شخص عزيز عليَّ، لكن الشيء الوحيد اللي أنا متأكد منه في كل ده...

ثم يسكت مدحت مرة واحدة وينظر للأرض، ثم يرفع رأسه مرة أخرى محدث آية قائلًا:

- أنا بحبك يا آية، بحبك من أول مرة شوفتك فيها، سبب حبي في الكلية مش الدراسة لا.. أنت، أنت مش سبب حبي في الكلية بس، أنت سبب حبي لحياتي كلها.. حياتي كلها يا آية.

تسمع آية هذا الكلام وعلى وجهها تعبيرات غريبة، مدحت غير قادر على قرائتها، أهي تعبيرات صادمة أم قلق أم خوف أم حب أم سعادة أم ماذا؟ ولكن ظلت آية تنظر لمدحت وهي في حالتها هذه لمدة خمس دقائق كاملة، ثم جلبت حقيبتها من على الكرسي بجانبها، ثم أخرجت منها ورقة صغيرة وقلمًا، كتبت لمدحت شيئًا عليها ثم أغلقتها وتركتها لمدحت وغادرت، توقع مدحت الأسوأ مثلما يفعل كل مرة قبل أن يفتح الورقة، حتى دار في عقله السيناريو الآتي: أرادت آية أن تقلل من حدة الموقف، فأخرجت هذه الورقة وكتبت فيها اعتذارها كي لا تحرج مدحت.

التقط مدحت الورقة باستسلام تام ليقرأ ما فيها ليجد رقم هاتف وتحته جملة: "ابقى كلمني علشان تحكيلي تهيؤاتك يا أستاذ مدحت."

ضحك مدحت بهستيريا، لم يفرح هكذا منذ مدة، لم يدخل السرور قلبه من زمن، جاءت آية ومحت الغبار من على قلبه وأحيته

مرة أخرى بعد موت، اقتربا الحبيبان من بعضهما وحكى لها مدحت كل شيء منذ ولادته وهي كذلك، حتى تقدم مدحت لخطبتها وكانت آية مصدر فرحته الوحيد، حتى انقلبت حياته رأسًا على عقب حتى ظهر هو.

عايز تعرف أنا عايز إيه... هاقولك.

حدق أكترا في عين مدحت، ثم قام من على الأرض وذهب للترعة وعاد مرة أخرى لمدحت ثم قال:

- بعد ما قتلوا الشخص اللي أنا كنت عايش بسببه وبقيت بموت في اليوم ألف مرة بسببهم، ماكنش فيه حل غير الانتقام، أنا كنت بحب جدي.

ثم نظر لجثة أبيه المقطوع رأسه..

- وكنت بحبه برده بس هما اللي بدأوا وقتلوها، وأنا كنت لازم أجيب حقها، روحت للكاهن وقولتله جدي بيطلب منك إنك تعجل في إعلاني كَمَلِك حاكم للبلاد لشيء خاص بفتح البوابة، لم يتردد لحظة وكتبلي مذكرة لجدي تفيد بتثبيتي ملك على عرش العالم.

ثم يبدأ أكترا بالضحك بهستيريا فظيعة ثم قال:

- بعد كده قتلته!

وأكمل حديثه قائلًا:

- بعد كده روحت لجدي وأول ما قرأت التعويذة قتلته وأخفيت جثته، طبعًا الناس استغربوا فين ملكهم فين مِنوس، هنا كان لازم أتصرف وبسرعة طلعت على الشعب في بيان عاجل، وقلتلهم وأنا أظرف سيل من دموع التماسيح:

- أهلًا عالمي.. أخرج عليكم اليوم لأخبركم بأمر عاجل، لقد مات السيد "مِنوس" وفاضت روحه الطاهرة إلى خالقها بعد عناء شديد مع المرض، المرض الذي لم يخبر أحدًا عنه سواي، وأمرني بعد وفاته أن أدفنه في مكان كان يحبه كثيرًا، وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة أعطَ لي التعويذة ونصبني حاكمًا على البلاد، وهناك قرار فضلت أن أتشاور معكم فيه قبل إصداره، تم العثور على جثمان الكاهن الأكبر في منزله مقتولًا وبعد تحريات الأمن ومعمل الطب الشرعي، اكتشفنا أنه مات منتحرًا، وما زال البحث عن هذا سبب هذا الانتحار، لذا..

قررت أن ألغي منصب الكاهن الأكبر، وأن يكون تولية الحكم بالتوريث أو ما يختاره الحاكم الموجود آنذاك ويراه مناسبًا؛ لذا سنجري استفتاءً جماعيًا للتصويت على هذا القرار واختيار الأفضل بالنسبة لكم، حفظكم الله جميعًا من كل شر وسوء.

- بعد ما انتهيت من الخطاب ده أبويا تعب بسبب وفاة جدي،

وكان حاسس دايمًا أن فيه حاجة مش مظبوطة، حكمت العالم وكل شوية أأجل ميعاد فتح البوابة، عمال اسرق وانهب من موارد العالم، العيشة بقت صعبة والناس قرفت وسموني الملعون، العالم بتاعنا بيضيع لحد ما جالي أبويا في مرة وقالي:

- ماذا فعلت في جدك يا أكترا؟

رددت متعجبًا:

- وماذا سأفعل فيه يا أبي؟

- أنظر أن أشك بنسبة كبيرة أن موته ليس بمرض، وأن الكاهن لم يمت منتحرًا وهناك علاقة بين موتهما ولا أعرف ما هي!

كان أكترا ينوي الانتقام من أبيه أيضًا لوقوفه مكتوف الأيدي عند مقتل سوميرا، ولم يحاول أن يساعده وتركها تموت بدم بارد، ولكنه كان ينتظر أن ينسى الناس موت مِنوس حتى لا يشك أحد في أمره.

نظر له أكترا في عينه وهو يبكي قائلًا:

- كان جدي مصابًا بالسرطان يا أبي ولم يخبر أحدًا غيري، كنت معه كل يوم في علاجه، كنت أراه يتألم أمام عيني، لم تقدر التعويذة على شفائه وبعد كل ذلك تشك فيَّ.. شكرًا يا أبي.

شعر نولن بعد مسرحية أكترا هذه بتأنيب الضمير، ثم مزح مع

أكترا أخبره أن مسؤوليته أصبحت عظيمة وأن ينسى ما قاله، فهو قال له هذا بسبب حالته النفسية حزنًا على أبيه.

نظر مدحت لأكترا بحزن ثم قال له:

– طب أنا مالي ومال مشاكلكم ومال عالمكم؟

– أنا محطوط في كل ده ليه؟

– أنا ماعرفكش، معيشني في جحيم طول السنين اللي فاتت دي، قتلت أعز الناس ليا، نفسي أفهم أنا عملتلك إيه؟ عملتلك إيه؟

ابتسم أكترا لمدحت ابتسامة خفيفة ثم قال له:

– ماقدرتش أنسى سوميرا، ماقدرتش أعيش من غيرها، لحد ما جاتلي فكرة إني أخليها تعيش تاني، بعد ما ماتت دورت في كل العوالم على حد شبهها، على حد زيها لحد ما شوفت مستقبل عالمكم قدام عيني.

ونظر لأية قائلًا:

– لحد ما شوفت آية، آية هي سوميرا في كل حاجة، في ضحكتها في شكلها في طبعها اللين السهل، بس كان فيه مشكلة ماكنش ينفع أدخل عالمك فجأة، كدا هايحصل خلل في معادلات الزمكان.

فجأة صاح مدحت في وجهه قائلًا:

- ماكنتش تساعد في ولدتي، ماكنتش تخليني أتولد.

ليرد عليه أكترا قائلًا:

- قولتلك مش هاينفع، كده هايحصل خلل في توزان الكون، الزمن هيبوظ وهيحصل حاجات محدش يتخيلها، علشان كدا أنا فكرت في فكرة عبقرية، جمعت شوية خطوط ببعضها علشان أقدر أحقق اللي عايزه، بداية بمنوت اللي كانت بتتعامل مع جدي، كنت أسمع عنها استغلتها، وخليتها تستغل وهدان، وخليت وهدان يتستغل أبوك، لحد ما الخيوط كلها اتوصلت ببعض، كلام الكاهن ساعدني في خطتي وفتح البوابة، كان أغراضه كتير بس أنا كان غرضي واضح، نظر لآية ثم أكمل قائلًا:

- ألاقي سوميرا، استنيت كتير لحد ما جات اللحظة الحاسمة، كنت محتاج حاجتين، واحد يموت، وأنت تتولد في مكان فيه مياه مختفي، كل الظروف ساعدتني، جهزت كل حاجة قطعت الكهربا، محمود مات، انت اتولدت اتفتحت البوابة، وكان يوم ٢٩/ ٢/ ١٩٨٠ هو يوم ميلاد البوابة.

ذهب أكترا ناحية آية ثم قال:

- دلوقتي هبقى مع سوميرا حبي الأبدي.

نظر له مدحت ثم توسل له قائلًا:

- بس دي آية مش سوميرا، أرجوك متعملش كدا، ثم صاح قائلًا:

- أنا مش هسمحلك.

مشى أكترا ناحيته ثم ابتسم له قائلًا:

- أهلًا بك في عالمنا، تظن أنك تائه، ولا تعلم ماذا أتى بك إلى هنا، و لكن سرعان ما ستعلم أنك خُلقت من أجلنا، شئت أم أبيت مصيرك محدد بالفعل، جئت لتكمل ما بدأناه، ولا تتعجل في تحقيق أحلامك، فأحلامنا أولى وأنجح، نحن نعلم ما لا تعلمه، وكل ما عليك فعله هو الطاعة، إذن الطاعة هي كلمة السر، افعل ما تريد ولكن لا تكن متمردًا، اتبع آمالك ولكن سر فوق خطواتهم التي حُددت لك، كن كيفما شئت متى شئت وَلكن تخفى جيدًا حتى تصل إلى مرادك، ولتعلم جيدًا أنك لست الضحية هنا، فجميعنا ضحايا مع اختلاف الحادثة، أنا ضحيتهم وأنت ضحيتي وهم ضحاياك، و إن أردت الانتقام فلا تتعجل لأنك من تستحقه، فأنت ألد أعدائك، إنك لست أفضل مني، فأنا هو أنت، ربما كل مِنَّا في عالمه الخاص، ولكن اليوم هو يومك ولنا لقاء، و لقاؤنا محتوم.

- نظر مدحت له بعين باكية، ثم ضحك أكترا ثم قال له:

- من الواضح إن أنت فهمت أنا عايزك في إيه، إيه رأيك أوديك للناس اللي وحشوك؟

أبوك وأمك وهنية ووهدان، ومتخافش هعيش كأني أنت بالظبط.

نظر أكترا ليده ثم ظهر سيف من العدم، تحرك تجاه مدحت ورفع السيف على رأسه ناحية شريانه التاجي ثم...

(مطار القاهرة الدولي -٢٩/ ٢/ ٢٠٢٠)

سحاب صافية، طائرة تحلق بينها، يجلس مدحت بجانبه آية زوجته بجانبهما طفليهما نورا وطارق، قادمان من فرنسا بعد ما انفتح المجال الجوي مرة أخرى، جاء الكوفيد فقلب الأحوال، كان مدحت وعائلته في فرنسا، يستمتعون بإجازتهم في بداية عام ٢٠١٩، جاء الكوفيد في مارس وأغلقت الحياة، وتوقف المجال الجوي بين جميع البُلدان، اضطر مدحت وزوجته البقاء في فرنسا حتى تمرَّ هذه السحابة المغيمة، هبطت الطائرة وركب مدحت وعائلته السيارة ذاهبين إلى منزلهم بمنطقة توريل بالمنصورة.

- كانت سنة جميلة أوي يا بابا، بس الكورونا أوحش حاجة فيها.

- رد مدحت على ولده قائلًا:

- الحمد لله يا طارق يا حبيبي إننا رجعنا بلدنا سالمين محدش مننا مُصاب.

لتتدخل نورا قائلة:

- عايزين نبقى نروح تاني يا بابا.

ردت عليها آية قائلة:

- إن شاء الله يا حبيبتي، كل حاجة تتظبط، والكورونا الوحشة دي تمشي وهنروح في أي مكان أنتوا عايزينه.

ضحكت العائلة مستمتعين بوقتهما، وصلوا لمقر بيتهم دلفوا للداخل، عقمت آية العائلة قبل أن يخطي أحدٌ منهم عتبته، وأمرت أطفالها بالدخول لغرفهم ووضع ملابسهم في مكانها، دخل مدحت لغرفته مستنشقًا هواءها النقي، اشتقى لها كثيرًا، طلب مدحت من آية أن تجهز له الحمام ليستحم، وحين كان يجلس في غرفته مبتسما راضيًا، طرق أحدهم الباب، ذهب مدحت ليرى من، فتح الباب فوجد صديقه أحمد مبتسماً قائلًا له:

- كل سنة وأنت طيب يا أكترا، قصدي يا مدحت، وحشتني.

تمت.

شكر خاص

أحمد محمد معوض (مانو).

فاطمة حجازي.